الثقافة للجميع

سلسلة

كتاب الجيب

يوزع مجاناً مع مجلة الموقف الأدبي- العدد ٥٦٢- تموز ٢٠١٧ السنة الخامسة

مختارات قصصية

اعتدال رافع

اختيار وتقديم: د. ماجدة حمّود

سلسلة كتاب الجيب- العدد ٥٦٢- تموز ٢٠١٧ اعتدال رافع

تبحث الكاتبة اعتدال رافع عن ذاتها، أي عن مرفأ لأوجاعها، فلا تجد سوى الكلمة، فهي حياتها، التي يمتزج فيها الألم بالحلم، لهذا حمّلت هذه الكلمة رسالة جمال ينزف ألماً، فتغلغلت أعماق المتلقي دون أن يحس لحظة بأنه أمام عالم متخيّل مدعٍ، فقد اتقنت "لعبة الفن" لكننا مع اعتدال رافع نتردد في استخدام هذا المصطلح، الذي قد يوحي بشيء من الافتعال في نسج بنية القصة، لأننا نعايش البساطة وقد تألقت جمالاً فنياً وعفوية، فقد أصغت الكاتبة بقلبها إلى وجع الإنسان، وانطلقت بالكلمة لترفرف في آفاق فنية مدهشة، حتى بدت لنا اللغة المكثفة في قصتها، وكأن الكاتبة تزنها بميزان الذهب.

د. ماجدة حمود

دمشق- سورية- ص ب ٣٢٣٠

هاتف ٦١١٧٢٤٠-٦١١٧٢٤١-٦١١٧٢٤٢

فاكس ٦١١٧٢٤٤

www.awu-dam.org

aru@net.sy

إمرأة من برج
الحمل

عـنـوان الـكـتـاب : إمرأة من برج الحمل

تألـــــــــــيف : اعتدال رافع

اختـــيار وتقـــديم : ماجدة حمود

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/62/ تموز

الـنـاشـــــــر : اتحاد الكتاب العرب

الإخـــراج الفـــني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **unecriv@net.sy**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.org

إمـرأة مـن بـرج الحمل

تأليف
اعتدال رافع

اختيار وتقديم
مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (62)

اعتدال رافع
إنقاذ الذات عبر الإبداع القصصي

ماجدة حمود

ولدت اعتدال رافع في لبنان (1938) لكنها استقرت في دمشق، حصلت على الإجازة في التاريخ من جامعة دمشق، عملت في التدريس، وكتبت القصة والمقالة والشعر.

صدر للكاتبة سبع مجموعات قصصية "مدينة الإسكندر" (1980) "امرأة من برج الحمل" (1986) "الصفر" (1988) "يوم هربت زينب" (1996) "رحيل البجع" (1998) "أبجدية الذاكرة" (2000) "بوح من زمن آخر..." (2006)

كما جمعت بعض مقالاتها في كتاب "بيروت كل المدن وشهرزاد كل النساء" (1989)

تتمرد اعتدال رافع على ما تشهده اليوم الساحة الثقافية العربية، إذ نجد كثيرا من الأدباء يلجؤون إلى الرواية بعد أن كتبوا الشعر أو القصة القصيرة، لهذا أصدرت ديوان "كلمات مسافرة" (2010)الذي يعبق بأنفاس القصة القصيرة هواها الأول!

***

تبحث الكاتبة اعتدال رافع عن ذاتها، أي عن مرفأ لأوجاعها، فلا تجد سوى الكلمة، فهي حياتها، التي يمتزج فيها الألم بالحلم، لهذا حمّلت هذه الكلمة رسالة جمال ينزف ألما، فتغلغلت أعماق المتلقي دون أن يحس لحظة بأنه أمام عالم متخيّل مدعٍ، فقد أتقنت "لعبة الفن" لكننا مع اعتدال رافع نتردد في استخدام هذا المصطلح، الذي قد يوحي بشيء من الافتعال في نسج بنية القصة، لأننا نعايش البساطة وقد تألقت جمالا فنيا وعفوية، فقد أصغت الكاتبة بقلبها إلى وجع الإنسان، وانطلقت بالكلمة لترفرف في آفاق فنية مدهشة، حتى بدت لنا اللغة المكثّفة في قصتها، وكأن الكاتبة تزنها بميزان الذهب، مما يعني حساسية مرهفة للكلمة، وبذلك نعايش احترامها لها قدراحترامها المتلقي، لهذا نأت قصتها عن الثرثرة، وحملت أمانة روحها وأوجاعها! إذ خفق الشعر في شرايين قصتها القصيرة، فقد أحست الكاتبة أن الجمال هو نبض القصة، وأن من يستسهل هذا الفن، لن يملك بصمة خاصة به، وسرعان ما ينساه الزمن!

تكتب اعتدال رافع بدم القلب قهر الإنسان، فتجسد أوجاعه، التي هي أوجاعها، لهذا حلّقت قصصها بعيدا عن الإلغاز والحذلقة اللغوية، إنها تعيش كلمتها، وتتنفس بفضلها، فهي فرحتها الوحيدة، التي أمدّتها بالروح، ودفعتها للاستمرار في الحياة، إنها صمام أمانها، تطرد بها وحشتها، لهذا أخلصت لها الود، وتمسكت بها، كمن يتمسك بحبل خلاصه، وقد تنقطع عن الكتابة فترة من الزمن حين تهجم عليها أوجاع الحياة، لكنها سرعان ما تستجمع قواها الروحية، وتلملم إرادتها متسلحة بالكلمة، فتنهض من جديد، لهذا لم تصدر

مجموعات قصصية كثيرة، لكنها استطاعت أن تترك بصمتها الخاصة، التي تنعش ذاكرة المتلقي.

لن أستطيع في هذه العجالة أن أفي الكاتبة حقها، حاولت أن أقدم في هذه المختارات مراحل متعددة من إبداعها، كي أحفّز المتلقي على قراءتها ودراسة أعمالها، فاخترت مجموعة لها قديمة "امرأة من برج الحمل" في عام 1986، وقصة "أبطال من ملح" التي صدرت في مجموعة "يوم هربت زينب" (1996) بالإضافة إلى قصة "فارس" كتبتها (1994) ولم تنشرها الكاتبة في أية مجموعة!

لو تأملنا عنوان مجموعتها "امرأة من برج الحمل" فإننا لن نجده عنوانا لأي من قصص المجموعة، كأن الكاتبة، التي هي من مواليد برج الحمل، تتماهى مع أبطالها، وتريد أن تجعل معاناة أبطالها المقهورين (وخاصة من النساء والأطفال) تجسيدا لمعاناتها، حتى إن هذا العنوان يصلح لمعظم قصص المجموعة، إذ وجدنا (سبع قصص) تتحدث عن معاناة المرأة الضعيفة كالحمل "الدجاجة" "الجرد الحنون" "الصبية والأخطبوط" "وحشة" "الجنين الذي ذبح أمه" "رقية"

أما في قصة "امرأة ورجل" فنجد الحلم والفقر يؤسسان لبطولة مشتركة بين الجنسين، فيبدو صوت المرأة (أم شفيق) ندا لصوت الرجل (أبو شفيق)إذ جمعهما الحب والأحلام، فأنجبا (شفيق) لنعايش عبر دلالة الاسم الأمل في بناء الأسرة تحت لواء أنبل المشاعر! فالحنان والشفقة يحتاجهما الصغير والكبير، وافتقادهما يدمر الروح قبل أن يدمر بيت الأسرة.

وقد وجدنا ثلاث قصص تتحدث عن البطل الذكر الذي ينتمي إلى عالم (الحمل) إذ نجده فتى ضعيفا ويتيما (في قصة "الدرب إلى المجرة") أو فتى يضاف إلى فقره إعاقة أصابته أثناء القصف الصهيوني لقريته الجنوبية (في قصة "حكاية ولد من جيل يأجوج ومأجوج") حتى الفتى الحطّاب الذي كان في العشرين من عمره (في قصة "وكان اسمي الشاطر حسن") لا يملك سوى أحلامه (طاقية الإخفاء) وفأسه، ما إن يحاول تغيير بؤسه حتى يصفعه واقعه، فيجد (المهلهل) صديق أحلامه مذبوحا أمام باب بيته! ربما كان ذبح صديقه الفارس الجاهلي (المهلهل) دليلا أن الشاب في هذا الزمن عليه أن يبدأ من جديد بعيدا عن أساطير البطولة الجاهلية، ليصنع بطولة خاصة به، تستند على ظروف عصره ومعطياته!

تدهشنا هذه المجموعة (التي كتبت بين عامي 1974و 1985) بجمالياتها، التي ترتكز على لغة تتراوح بين اليومي بحيويته والشعري بكثافته وعمقه، ففي قصة "رقية" تنتقي الراوية مفردات تجسد روح البيئة الشعبية"**دفعت ثمنها من عبها**" مثلما نجد لغة تخييلية شديدة التعبير والإيحاء "**قذفنا الناس بقمامة ألسنتهم وفضلاتهم**"

تتميز الشخصية في قصص اعتدال رافع بجموح الأحلام، فتبدو مدهشة على الصعيد الإنساني والجمالي، فهي لا تعرف الركون لبؤس الواقع، ترفض أن يقيّدها العادي والمألوف بقتامته، ولذلك كثيرا ما تبدو أحلامها أكبر من بؤس واقعها، مما ينسج ملامح شخصيات فريدة، لا تعرف التنازل عن حلمها، فهو فرصتها الوحيدة، كي تتجاوز قبح حياتها "**أشفقت عليه لأن قدميه كانتا أكبر من**

حذائه، وجسده أوسع من ملابسه..."(قصة امرأة ورجل) مما يوحي بأن الرجل يعاني انكسارا داخليا تجلى في عينيه، لكن حب المرأة واهتمامها أدى إلى **"استقامة جفنه المكسور، وأصبح مثل من النسر"**

لهذا يبدو الحب لدى اعتدال رافع رفيق الحلم، فهو الذي يمنح الإنسان المقهور قدرة على مواجهة أوجاع الحياة، فلا تستطيع هزيمته، صحيح أن العفن ينتشر في كل مكان، لكن الروح الحية والإرادة التي تتسلح بالحلم والعمل ستكتشف جوانب خفية في أعماقها، توقظ العزيمة، وهي لن تدرك مدى قوتها إلا حين تواجه وتتحدى! لهذا لن نستغرب أن تنتمي معظم الشخصيات إلى طبقة القهر والحلم والأمل، فالطفل يرسم رغيفا ويبيت جائعا، وبذلك استطاع خيال الكاتبة الجامح أن يرسم ملامح لهذا الطفل، لا تبارح الذاكرة، **فجمجمته تنمو على حساب جسده، فتبدو كأنها مركبة تركيبا** (قصة حكاية ولد من جيل يأجوج ومأجوج)

أما الطفلة (رقية) التي تخبئ النجوم في جيبها، تتجمد يداها من البرد والعمل في البيت، لهذا تحسّ أن الكبار يهدّون أحلامها، وينغصون حياتها، فتستبدل **"بالنجوم البعيدة القبور القريبة"** رغم ذلك تقاوم ظلمة الحياة وقسوتها بالعلم، فتتهجى حروف الأبجدية عبر شواهد القبور!

يبدو الكبار أحد أسباب قهر الأطفال، فهم بوصايتهم عليهم يفترسون أحلامهم، فيهدّمون جسور التواصل بينهما، وقد تصل قسوتهم إلى درجة لا تصدق، تنتفي فيها أعظم المشاعر، حتى إن **"الأم تهيئ مشنقة لابنتها"** لهذا يتخبط الطفل وحيدا في عوالم قاتمة مرعبة!

لذلك قد يموت البطل لديها قبل أن يستوفي حقّه من الحياة، التي كثيرا ما تختزل في مرحلة الطفولة! إذ من المعروف أن هذه المرحلة تصاحب مراحل الحياة كلها، حتى بعد أن يغادرها، فتدمغه بصمات الحرمان منها، فترتسم على وجهه خطوط الأحزان، فقد ضياعت أحلامه وأفراحه بضياعها، لهذا لن تستطيع البطلة تحقيق حلمها في أن تتعلم السباحة، وأن تكتشف عوالم المدن المسحورة في أجواف الحيتان!

اعتنت الكاتبة بجماليات الخاتمة، حتى لتبدو أشبه بجرح يفغر فاه ألما، عندئذ يثير أسئلة في أعماق المتلقي، ففي مشهد ختامي غرائبي مفزع حيث يغطس الأطفال بدم أمهم لحظة وفاتها **"كانت فاطمة تطفو فوق بركة دم، شاحبة وفمها مزموم وعيناها كبيرتان. لم يسبق لهم رؤية عينين بهذا الاتساع المزق، انتحبوا وهم يقتربون منها أكثر. وتقرمزوا بدمائها."** وقد جاء عنوان هذه القصة "الجنين الذي ذبح أمه" ممهّدا لفجائعية هذه القصة وغرائبيتها! فقد قتل الأم جنينها الذي حاولت إجهاضه!

حققت اعتدال رافع في هذه المجموعة معادلة الفن الصعبة التي يلتقي فيها الجمال بهم الإنسان، فقد أتاحت للمتلقي فرصة معايشة الألم عبر لغة تخييلية، تنفتح على جمال لا تدركه إلا روح مرهفة، تستطيع أن تكشف معاني إنسانية تهب معنى للحياة ، وتخفّف ظلمة القهر، لهذا نسمع طفلا في (حكاية ولد من يأجوج ومأجوج) يقول: **"أترقب خروج صاحب البيت ليحييني بابتسامته العذبة التي كان أنسها يبهرني، لم يسبق لي أن رأيت في حياتي ابتسامة فيها كل هذا الضوء، وأيقنت أن هناك شموسا أخرى غير الشمس المعلقة في السماء."**

أعترف أن جمال هذه اللغة وعمق حساسيتها الإنسانية جعلني أكاد أتناسى خطأ فنيا ارتكبته الكاتبة، حين أنطقت طفلا بلغة تتجاوز قدراته، فقد أسقطت عليه رؤيتها وحساسيتها، وبذلك ضيّعت صوته الخاص به!

في قصة "الجرد الحنون" تفتقد المرأة الروح الإنسانية لدى رجال عشيرتها، الذين انتزعوا كينونتها وشيّؤها، فقد سلبوها الإرادة والحرية، لهذا تقول: **"ألبسوني شوالا، هكذا يصطادون الكواسر في الشوال، ضاعت قُبلي وابيضّت شفتاي"** يبدو تكرار (كيس الشوال) هنا مقصودا، فالمرأة لا تكتفي بالإعلان بل تؤكد مدى التشوه والقهر الذي يحاصرها من رجال، ينتمون إلى مرجعية تقليدية (العشيرة) تفرض إرادة التخلف عليها، فقد أرادوا خنق تمرّدها، مثلما أرادوا وأد الحياة في داخلها! لهذا تبتعد عن البشر، فتجد منقذا لها في (الجرد الحنون) رغم ما يحتويه من حيوانات مفترسة، التي تتخلى عن وحشيتها، وتمنحها الحنان، بعد أن مارست القبيلة شتى أنواع القهر عليها **"دار الضبع حولي، شمّني، أطلق صيحة ثم رحل، عنقي مذبوح، وشعري محروق، وركبتي مجوفة، والورد الجوري يبس دما على شفتي...الضباع والرياح والعتمة، ترصّع ليل الجرد بالأنس. عزّ على الليل أن يتركني وحيدة، وحمل إلي ابن آوى، تأملني بحدقتين دامعتين."**

يتماهى صوت الكاتبة هنا مع الشاعر الشنفرى، الذي ترك قبيلته، بعد أن افتقد فيها دفء العلاقات الإنسانية، ويرحل إلى الصحراء، حيث يلوذ بحيواناتها (الذئب والنمر والضبع...) إذ يجد في جوارهم الأمان، كما يجد في عشرتهم الصدق، ففي لاميته يقول:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

ولي دونكم أهلون: سيد عملّس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل[1]

في قصة "وحشة" تعيش المرأة عزلة عن الحياة، لهذا تكره الليل، الذي يزيد وحشتها، وتتمنى لو يرحل إلى بلاد العشاق والشعراء، فجماله لم يخلق من أجلها، فقد اجتاحها الجدب والقهر، لذلك تحسد الكلاب على حريتها، وتتمنى لو تعلن حرمانها على الملأ! وهي لا تجد وسيلة تخفف قلقها وهواجسها سوى التدخين، كما لا تجد وسيلة للتمرد سوى على النصائح التي تدعو للإقلاع عنه خشية الموت! فهي مشدودة إلى رغبة في الانتحار البطيء، لعلها تنقذ روحها من إحباطها وقهرها!

***

تختار الكاتبة في قصة "فارس" التي كتبتها (1994) عنوانا لقصتها هو اسم لبطلها (فارس) مما يغني دلالة الاسم والعنوان معا، إذ تعلن عن ولادة بطولة جديدة، لا تصنعها المعارك والانتصار على الأعداء (كأيام الفارس عنترة) بل هي بطولة العمل والكفاح من أجل لقمة العيش، لهذا بدا لنا (فارس) العامل في مقهى (أبو شفيق) بالربوة، على صلة بأبطال مجموعتها السابقة (امرأة من برج الحمل) إذ يجري

---

(1) سيد: ذئب، عملّس: سريع، أرقط: نمر، زهلول: أملس، عرفاء: طويلة العرف، جيأل: ضبع

في عروقه مثلها دم القهر والفقر، لكنه بدأ يتجاوز صفة (الحمل) التي كانت ملتصقة بأبطال تلك المجموعة، وبات لديه من اسمه نصيب، إنه بطل يواجه بؤس الحياة بالعمل في المقهى، فتصبح **"أباريق الشاي ودلاء القهوة والنراجيل هم ترسه ورمحه وأبجره في مقارعة الزمن."** لذلك يتجاوز فروسية عنترة، التي تجلت في ساحات القتال، ليعيش فروسيته الخاصة، عبر الكفاح في ميدان الحياة اليومية، لتأمين لقمة عيش شريفة، ومع ذلك لا نستطيع أن نقول إنه منقطع تماما عن مفهوم الفروسية القديم، إذ يلتقي مع فرسان الماضي في حب الشعر، كأن الفروسية في الذاكرة الجمعية العربية لا تجتمع إلا بثنائية الشعر والكفاح.

تمتلك الشخصية لدى اعتدال رافع بصمة خاصة، إذ تجتمع لديها قيم الكفاح من أجل متطلبات الحياة الجسدية مع قيم الجمال التي تحمي الروح من الضياع، وترتقي بحياة الإنسان، فهي ليست معنية بتأمين لقمة العيش فقط، بل هي عاشقة للجمال والشعر، لهذا أقامت علاقة استثنائية **مع الله والطبيعة والشعر!** وبذلك تميّزت الشخصية بجمال يهزّ القلوب، إذ لم يستطع الفقر تدمير روحها، حتى جسده بدا متناسخا من **جبال وأشجار ومياه...**

اعتنت الكاتبة بتقديم شخصية فقيرة من لحم ودم (ترتدي ملابس فضفاضة، ويحفر التعب أخاديد على وجهها...) لكنها ذات ملامح أسطورية جديدة، لهذا ترسم فارسا من زمنها، قد يتمثّل عنترة، لكنه يحلق بعيدا عنه، ليصغي إلى صوت قهره، ويبحث عن سبل لإنقاذ روحه! لهذا لن تسقط الشخصية في اليومي، رغم فقرها

وأميتها، بل تتسع ملامحها، لتكتسب خصوصية، تحفر في الوجدان، لكونها تبحث عن الرغيف والجمال معا! فقد نبضت في هذه القصة لغة الحياة اليومية **(ينهض فارس مع جهجهة الضوء)** مع اللغة الشعرية **(مسكون بالهدير، ولا يكفّ عن الدوران حول ينابيعه القصية والرغيف!)**

ومما يسجل للكاتبة، هنا، أنها قدّمت علاقة استثنائية بين العامل (فارس) والمثقف (الشاعر) منحت (فارس) دور البطولة، وجعلت الشاعر ذا دور ثانوي، حتى إننا لم نسمع صوته إلا من خلال (فارس) لهذا تبدو شخصية العامل مؤثرة في الوجدان، خاصة حين امتزج عرق الكفاح بحب الطبيعة والشعر!

***

بعد عشر سنوات من كتابة "امرأة من برج الحمل" أصدرت مجموعة "يوم هربت زينب" التي يلمس فيها المتلقي تألقا في قصة اعتدال رافع، إذ تبّدت لنا رغبتها في تجديد إيقاعها الفني، مما أتاح لنا معايشة تجربة إبداعية يتعانق فيها الجمال بالتجربة اليومية! مثلما يتعانق الأسلوب التقليدي بالأسلوب الحداثي، كقصتها الطويلة "يوم هربت زينب" كما وجدنا في قصتها القصيرة "أبطال من ملح" لغة تقترب من الشعر في كثافتها وصورها ورموزها، فقد أعلنت الكاتبة منذ الرسالة الأولى (العنوان) أنها تقوم بخرق التقاليد المألوفة في كتابة القصة، لتقدم لنا عالما لا معقولا أشبه بالحلم، مما يوحي لنا باستثنائية شخصياتها وفرادتهم، فهم ضعفاء، ينتمون إلى عالم وهمي

(من ملح) فقد تغيّر الزمن ولم تعد البطولة تقوم على القوة والصلابة والقدرة على المواجهة والانتصار على الأعداء، باتت الشخصية خرقاء سريعة الذوبان كالملح، فقد نجح الواقع في قهرها، صحيح أنها تهرب من انكساراتها إلى الأحلام، لعلها تقيم توازنا بينها وبين صفعات الحياة، لكنها تكتشف حقيقة مؤسية وهي: أن اللصوص سرقوا منها الحلم أيضا!

تقدم الكاتبة في هذه القصة حالة عامة، لا تخص أبطالها وحدهم، لهذا تختار لبطلها اسما يتسم بالعمومية (عبد الله) أما بطلتها فهي (حياة) كأنها توحي لنا بأنها تختزل عبر هاتين الشخصيتين كل الفقراء من عباد الله الذين يعيشون الموت وكل ما يناقض الحياة بسبب سيطرة الجوع والحرمان! ومن هنا تبدو الدلالة الساخرة التي أسبغتها الكاتبة على اسم المرأة (حياة)

لا تنطلق هذه الشخصيات بحرية بعيدا عن المؤلفة، كما هو مألوف عادة من الناحية الشكلية على الأقل، بل نسمع صوت المؤلفة يتدخل في سيرورة الحدث القصصي، حتى لتبدو كأنها إحدى الشخصيات، بل تصرح بأن بطلتها حياة تشبهها **"تعيش مكسورة الخاطر"** وعبد الله كأنه زوجها **"فاشل ومهزوم"**

لم نجد الكاتبة معنية بتقديم قصة واقعية، لهذا سمعنا صوتها يبيّن لنا أننا أمام عالم وهمي من نسج الخيال "بعد أن استنكر القاضي هزيمة أبطال قصتها، نجدها تقول: "توسدت **شخوصي** جرحها ونامت"

إن استخدام لفظة شخوصي أبرز لنا صوت المؤلفة لا صوت الراوية الذي يقدم الحدث والشخصيات بحيادية غالبا! فهي تعلن تدخلها، كي تؤكد وهمية عالمها القصصي!

يبدو لنا أن المؤلفة تعاني الخوف من سلطة ما، نظرا لحلم شخصياتها ببطولة تنفي حالة القمع، إذ تعيش قصية عن إنسانيتها، التي هي حريتها وكرامتها، وقد تجلى قلق اعتدال رافع وخوفها عبر تدخلها عدة مرات، لتوضح أن طبيعة شخصياتها من ملح، أي من وهم، لهذا تقول: **"نامت على أوراقي تحدوها أحلام البطولة"** وتارة تصف شخصياتها **"مسكوبة على أوراقي كدموع مهاجرة في رمد الهجير، ومزحومة بأنفاس من خيوط الحكاية."**

وهكذا تتجلى الحداثة في قصتها عبر تأكيدها على وهمية شخصياتها، في حين وجدنا كتاب القصة التقليدية يؤكدون على واقعيتها، وبالتالي نفي أي تدخل تخييلي من الكاتب (مثال ذلك قصة وداد سكاكيني "الذئبة" من مجموعة "الستار المرفوع")

ثمة إحساس لدى المتلقي بتماهي الكاتبة مع شخصياتها (حياة، عبد الله) فالهم يوحدهم جميعا، مثلما وحدتهم مواجهة شخصية (الحرامي) الذي لا يكتفي بتنغيص حياتهم، بل نجده ينغص أحلامهم، فيحرمهم من الفرح مثلما يحرمهم من الأرغفة، بل نجده يتجرأ ويقتحم دفتر المؤلفة، فيضطر كل من (حياة وعبد الله) إلى الهرب، فقد استطاع أن يفسد حلمهما بالرغيف، مثلما استطاع سرقة الأمل منهما (خاتم السلطان) الذي كان سيحل مشاكلهما، وقد بدت المؤلفة متعاطفة مع بطليها، تلعن الحرامي في سرها، وتلوم نفسها على

الورطة الشنيعة التي أوقعت بها أبطالها، إذ أفسدت أحلامها حين دفعته لاقتحامها وسرقتها!

إننا نجد، في هذه القصة، خلخلة للمقاييس الفنية في الكتابة القصصية، إذ من المعروف أن المؤلف حين يقدم شخصياته، عليه أن يحاول تقديمها بموضوعية وحيادية، فلا يظهر تعاطفه معها أو نفوره منها! ولعل هذه الخلخلة جزء من الرؤية الحداثية للقصة!

وقد استخدمت الكاتبة اسم (الحرامي) عوضا عن (اللص أو السارق) لأنها أكثر تداولا في الحياة اليومية، وهي ذات صلة بالحرام المكروه في الضمير الشعبي بتأثير المرجعية الدين، باعتقادنا، وبذلك تنتصر الكاتبة للغة الحياة اليومية رغم نزوعها للحداثة القصصية، وبذلك اكتسبت هذه الحداثة لديها نكهة خاصة.

بناء على ذلك نستطيع القول بأن لغة الحلم شكّلت فضاء قصة "أبطال من ملح" دون أن تبتعد عن لغة الواقع، التي امتزجت أحيانا في القصة بالحلم، مما أسهم في انفتاح النص وتفاعل المتلقي معه رغم سيطرة الأحلام والفنتازيا على فضائه، مثال ذلك حين نسمع صراخ (حياة) **"أنا جائعة وقبل أن يهم عبد الله بانتزاع قلبه ليقدمه لها، رسمت رغيفا، خرج لتوه من التنور، تفوح منه رائحة القمح ولون الشمس، مد عبد الله يده لأخذ الرغيف، قال الخباز: ثمنه..."**

رغم بساطة حلم الموظف عبد الله (الرغيف) فإنه لا يستطيع تحقيقه مادام راتبه عاجزا عن تأمين كفايته، لهذا يلجأ إلى الحلم، الذي هو رديف الفن، كي يستطيع متابعة الحياة، لكن حتى الحلم

يحاصره السلطان ويصادره، ثم يأتي اللص، ليكمل المأساة، فيسرقه!

يلاحظ المرء أن بناء القصة قد تشكّل على إيقاع اللغة الشعرية، حتى لغة الواقع التي لحظناها، أحيانا، في القصة تبدو مشدودة إلى عوالم شعرية، وذلك بفضل سيطرة الحلم على فضاء القصة، فعندما تجوع الحبيبة يهم الحبيب بانتزاع قلبه، ليقدمه لها عوضا عن الرغيف، لذلك بدت لنا هذه اللغة برهافتها وبقدراتها المجازية قريبة من لغة الحلم الذي بإمكاننا أن نعدّه البطل الرئيسي في القصة، لهذا لجأت الكاتبة إلى اللغة الشعرية لكونها أقدر من اللغة التقليدية على تجسيده، فهي أكثر قدرة على الانطلاق بدلالات اللغة وتكسير مألوفيتها، مما يضفي جمالية خاصة على القصة، فالحبيبان حين يختلفان **"يجهشان باللوم على بعضهما، وتنأى مسافات القبل"**

إن كلمة (يجهش) التي اقترنت باللوم تلقي ظلال الحزن والفجيعة والخيبة على أعماق المتلقي، لذلك تضيع الحميمية بين الحبيبين ويسور البعد أشواكه بينهما! وبذلك أسهمت لغة الخيبة والألم في رسم جو الحزن والفجيعة!

كذلك نجد لغة الفرح ازدادت توهجا باستخدام لغة الشعر **"رقصا على إيقاع حلم دنا قطافه"** فتجلّت لغة الحياة الفرحة بكل حيويتها وانطلاقها (الرقص، الإيقاع، القطاف...)

كذلك أضفت الشعرية على لغة الضياع إيحاءات تغني دلالاتها، فاستطاعت أن تجسد مثلا خذلان الفقير الذي يفقد ملاذه الوحيد (الحلم) **"تاه القطيع وتبعثر في فلاءات الرمل"** فلم تكتف الكاتبة

بفعل (تاه) بل أضافت إليه (تبعثر) لتشدد على إيحاء الضياع والتمزق، ولذلك جاء (الفلاء) بصيغة الجمع ليعزز حالة الشعور بالضياع!

كما لمسنا في هذه القصة الغرائبية في التصوير لتزيد أبعاد الدلالة تأثيرا في المتلقي، فالفقير الذي ينجب طفلا، من المفترض أن يكون أملا له، نجده محكوما بحياة مشوهة منذ ولادته "**حبل السرة كان ملتصقا برقبة الصبي**" فقد عاش حياته مقيدا به، لذلك بإمكاننا أن نرى فيه حبل الفقر الذي يورثه الأهل لأبنائهم مع دمائهم يخنق أعناقهم منذ اللحظة الأولى لميلادهم، وبذلك بدت الغرائبية جزءا من جمالية اللغة الشعرية التي استطاعت أن تغني دلالات القصة، وتضفي حيوية وجمالا على فضائها!

ثمة نقطة أفسدت تفاعل المتلقي مع فضاء القصة، باعتقادنا، وهو تدخل صوت الكاتبة أثناء اشتداد الصراع في أعماق عبد الله لإحساسه بضياع الخاتم (الحلم) بسبب طرد جند السلطان له ، فبدا لنا هذا التدخل غير مستساغ رغم إدخالها إلى حلبة الصراع شخصية جديدة هي شخصية اللص!

إننا لا نرفض التجديد في شكل القصة، الذي قد يكون أحيانا تدخلا صريحا عبر صوت الكاتبة، لكن شرط ألا يفسد ذلك تفاعل المتلقي مع فضاء القصة، لذلك بدا لنا هذا التدخل في الافتتاحية وفي الخاتمة مستساغا، خاصة أن المؤلفة انتبهت إلى أمر هام هو: انسجام المقدمة مع الخاتمة، فقد بدأت القصة بالحديث عن شخصياتها المهزومة والمجروحة "**بعد أن استنكر القاضي هزيمتها، توسدت شخوصي جرحها ونامت**") وختمتها بنهوض الكاتبة في الصباح وإخراج

دفترها من تحت وسادتها، فتكتشف تلون صفحاته ببقع دماء شخصياتها التي تبدو متناثرة كالشموس.

أخيرا أعتقد أن هذه العجالة لا تفي تجربة اعتدال رافع حقّها، لكنها تلفت النظر إلى تجربتها الفريدة في الإبداع القصصي، وتحفّز القراء إلى ضرورة دراسة هذه التجربة المتميّزة بالعمق الإنساني والرهافة الشعرية!

الدجاجة

مرت ثلاثون... ولا زلت أتذكر المشهد:

غرفة ضيقة في قبو مظلم، لا أثر فيها للنسمة التي تحدثها رائحة الرجل. سرير وبضع أرائك وفراش على الأرض وفوضى، وجدران مبقعة بالبصاق ودم الحيض والبق، وامرأة في عقدها الثالث، كل ما فيها منفوش مثل ديك مشاكس.

تحمل مشنقة: حبلاً وصابوناً. تبري قطعة الصابون على الحبل وهي تكز على عظامها وأسنانها. تلف الحبل حول عنقي وتشدّه من طرفيه. تنتفخ الرقبة وتجحظ العينان.. ولا أموت. وأتظاهر بالموت، ولا تصدقني، وتستمر في شنقي.

أنسى أشياء كثيرة، طفولتي... وأن تلك المرأة كانت أمي..

وأنا لم أقترف ذنباً سوى أنني كنت ألعب لعبة الأمومة.

... صغاراً كنا وحدنا. أختبئ في "اليوك" كالدجاجة. أخرج حبات الحمص من جيوبي، أضعها تحتي، و"أربخ" فوقها برهة. ثم اقوقئ وأرفع رجلي. تنفلت حبات الحمص من تحتي وتكرج فرحة

مـثل "الـدحاحل". يهـرع إلـيها اخوتـي الـصغار الجائعـون. يلـتقطونها ويزقـزقون وهـم يقـضمونها ولا يحـسون بقـسوتها تحـت أسـنانهم اللبنـية. لأن الجوع يجعلها في طراوة الهليون.

ويحبني الصغار.. ويعترفون بأمومتي.

وأصدق فعلاً أنني دجاجة، تبيض حمصاً لصيصانها الجائعين. وأنسى أنني اشتريت الحمص من الدكان.

يطير صيتي في الحارة. يأتي أولاد الحارة إلي محمّلين توصيات الكبار. ويرجونني أن أبيض لهم ذهباً.

وأعدهم أن أبيض لهم ذهباً.. كثيراً.

كان يومها خيالي شاسعاً.. شاسعاً.. بامتداد..

أقضي النهار في الشوارع البعيدة وأنا أجمع أوراق الشوكلاته عن الأرض ومن بين أكوام القمامة حالفني الحظ وملأت جيوبي منها.

عدت إلى البيت وقلت لأخوتي وأولاد الحارة:

ـ سأبيض لكم كنزاً. انتظروني بعيداً. لا تداهمونمي وتقطعوا علي مخاضي.

دخلت "اليوك". قصصت الأوراق الذهبية على شكل مستدير ـ بحجم قطع النقود و"ربخت" في "اليوك" مدة، أطول من تلك التي كنت أقضيها في بيض الحمص.

اسـتعجلني الأولاد. نهـرتهم وأنـا ألعـن نـزقهم وسـوء تقديـرهم للموقف:

ـ إن من تبيض ذهباً ليست كمن تبيض حمصاً. الذهب غير الحمص أيها الأغبياء.

عندما انتهيت من قص أوراق الشوكلاته الذهبية، وكنت مأخوذة كلياً بلمعانها، رصفتها على شكل الكنز الذي كنت قد تخيلته في الليل وجلست فوقها بحرص شديد حتى لا أفسد ترتيبها ولمعانها.

ثم قوقأت.

تدافع الأولاد ورفعوا ستارة "اليوك".

تظاهرت بالتعب الشديد وأنا أنهض متثاقلة عن كوم الذهب.

وصدقت فعلاً أنني أبيض ذهباً حقيقياً.. كنوزاً.

بعثر الأولاد باستهتار كنزي الذي كلّفني الكثير من الجهد والعرق. داسوا فوق قطعه الذهبية. كسروا استدارتها.. وبكوا.

ـ كانوا جائعين.. والذهب لا يؤكل.

صاحوا معاً:

بيضي لنا حمصاً.. لا نريد ذهباً. تفوه عالذهب.

كان الكبار يراقبوننا، وما أن لمحوا بريق الذهب من بعيد حتى اندفعوا نحوه مثل عاصفة.

تدافعوا وتعاركوا وتضاربوا واقتتلوا، وكانوا من قبل يقتسمون رغيف الخبز والدمعة.

اختبأت مع الأولاد في "اليوك" الذي تغمست ستارته بالدم. أخرجت من جيبي بضع حبات من الحمص، وقدمتها لهم.

قالوا: ما هذا؟

قلت: حمص.

ولم يصدقوني. ورفضوا أن يأكلوا.

جاء رجال الشرطة وسيارات الإسعاف التي كنت أحب صوت زمامیرها.

اقتحم شرطي "اليوك" وضربني بوحشية.

وتناثر الكنز.. غباراً.

ثم أكملت أمي مهمة الشرطي.. بالمشنقة.

ومن يومها كففت عن لعبة الأمومة. وما عدت أصدّق بأنني أبيض حمصاً وذهباً أو حتى أطفالاً.

دمشق/1984

الدرب إلى المجرة

الدرب إلى المجرة طويل وصعب.

وأنا بلا أجنحة.

وألوم نفسي: من البلاهة أن أفكر بشيء كهذا. أنا مخلوق طيني محدود بالجاذبية ومحكوم بالشرائع والأنظمة والقوانين. الجوارح والعصافير فقط، يحق لها التحليق.

خدر كدبيب النمل يمشي في مفاصلي التي أكبح حركتها، ويمتلئ قلبي بالغصات.

"ألتصق بالمرأة التي أحب والتي تشاركني قدري وخندقي ومتراسي. أضج معربداً فيها. تقول لي أحبك يا فارسي. أبحث عن وجهها لأغمره بالقبل. الدخان والغبار يحجبه عني. أغوص في الخندق معها. ننصهر بالحرارة. الدمار المحيط بنا، الموت القريب، يوقظ فينا شبقاً قاتلاً وشهوة مدمرة. أمارس العشق معها.. ولا أصل إلى المجرة، لأن وجه حبيبتي قد حجبه الموت عني في لحظة النشوة".

أسافر خبباً، من نضجي المخمر بالتعاسة والأحلام، إلى طفولتي المشرعة على الجوع والبحر، الواقع يصرع أحلامي: تختلط الحنطة

بالـدم، والحـب بالمـوت، والبحـر بالمجاريـر. وأتـوزع بـين الكوابـيس والحـوريات الـسمراوات والبحـر. يهـاجمني عـسكر "الفرنـساوية" بحرابهم وبنادقهم. أسرع بالهرب، وأطير محلّقاً فوق الجبال، أرتاح على قمة جبل مدببة غارقة في الغيم والمطر. وأبول وأنا أقترب من المذنب. أنظر إلى الأسفل. أوقيانوس الرعب الأسود الذي يترصدني يشيع الهلع في أوصالي. يتخدر باطن قدمي، ولا أحس بثقلي. أختلج.. وأفقد توازني.

أفيق من كابوسي، وقلبي ينتفض في القفص الصدري (في محاولات بائسة للخروج منه) أنهض من فراشي مذعوراً. أبذل جهداً كبيراً في السيطرة على نفسي وإيقاف تيار الرجفان الذي يهزني. أحل الحبل الذي نربط به عادة باب بيتنا، وذلك بشدة إلى حديد النافذة في الليل؟ لأن بيتنا لا أسوار له. وتسكير بابه ضرورة من ضرورات الأمان.

"أنا صغير وخائف. وأمي سمراء كالفيافي، ومشدودة القامة والعينين. وعسكر "الفرنساوية" لا يوفرون حتى المرأة المجهضة، فكيف أمي؟".

يستقبلني الصباح ندياً برطوبة البحر. الشارع ضاجاً بالحياة والظهور الثقيلة والمنحنية. أركض حافياً مثل صبي الغزال الذي نشأ بين الوحوش في الغابة. أجعل نمرة قدمي. لم يسبق لي أن انتعلت حذاء جديداً، وأفضل أن أمشي حافياً، على أن أنتعل حذاء ليس لي. وبفضل العناية الإلهية. أصبح لدي حوافر صلبة تحمي قدمي من الحرارة والبرودة والتجرح.

أنزلق على سكة الترام الشديدة اللمعان والحرارة. أقلد صوت جرس الترام: ترن.. ترن..

وجهي إلى الغرب. البحر.. الأفق.. الزرقة. ومن خلفي الشمس والترام يلفحاني بأنفاسهما الحارقة.

يعلن الترام عن قدومه، وأبتهج. والابتهاج بقدوم الترام حق للأقدام العارية المنزلقة على سكة شديدة اللمعان والصلابة. ويغمرني ضياء وسكون. أتنحى لصديقي الترام عن السكة، فهي مخصصة لكلينا. نتناوب في الانزلاق عليهما حتى لا نصطدم ونتبعثر ونصبح أعداء. الترام صديق حقيقي. وسكته سكتي (سكة الحضارة الفولاذية). لا أظن أنني سأصبح ابناً باراً لتلك الحضارة. ولكن من الضروري أن أصبح هذا الابن البار، حتى أواجه عسكر "الفرنساوية" مواجهة حقيقية. مواجهة الند للند فالسيطرة ضرورية على كل البراغي والأزرار الفولاذية التي تشد العجلات وتحركها وتوقفها عند اللزوم.

أخرج من جيوبي قطعاً حديدية ومسامير كنت قد جمعتها من أماكن عدة. أفرشها بسرعة على سكة الترام.. وأنتظر. عجلات الترام تقدح شرراً عند انزلاقها فوق السكة. الترام حديد، والحديد ثقيل.. وأنا مخلوق طيني مضاء بالنجوم ومسكون بالعصافير، وأحياناً مطموس بالعتمة، وأصبح مسكوناً بالوطاويط عندما يصادفني عسكري سنغالي. تفرّ العصافير من عيني وأذني وتتساقط ميّتة في قلبي. تتكدس فوقها الوطاويط.. والنقمة، وأغلي (مثل مرجل قاطرة).

الترام يقترب، وأفاجأ بحرارة ووهج ينصبان فوقي. تمر عجلات الترام فوق قطع الحديد والمسامير، وتخلفها مسطحة.. رقيقة.. ملساء.. ومحرقة في سخونتها. أجمعها بيدي. ترتدّ أشعة الشمس من حواشيها إلى حدقتي. أقلبها بإعجاب واندهاش.

الفولاذ لا يدقه إلا فولاذ مثله، ومن الحكمة أن يتعلم الإنسان هذا في سن مبكرة حتى يعرف.. ويستطيع بعدها أن يتغلب على قهره. ويصنع قفلاً لباب بيته يحميه من الحرامية.

المسامير تحولت إلى ما يشبه السيوف. مقبض كل سيف ونصله.. متلاحمان.. القطع الحديدية الأخرى تحولت إلى تروس مستديرة. وأصبح عندي سيوف وتروس. وفي لحظة كبرياء أصبح وارفاً، وأقرر أن أحارب عسكر "الفرنساوية" وأهزمهم، والتهب حماسة للقتال.

"في تلك الليلة البعيدة عني والمحفورة على جبيني وعظم الجمجمة. تسلل أبي مع كيسين من الطحين وبغله وغبر الحدود السورية إلى لبنان. اعترض طريقه عساكر الفرنساوية، وعاملوه بقسوة وشراسة. ولم يحترموا حبه ونخوته. صادروا بغله والطحين وأرادوا مصادرته وسجنه لأنه تجرأ وخرق القوانين الفرنسية التي تحظر تهريب الطحين. قال لهم أبي أنه مضطر أن يفعل ذلك لأن أفراد أسرته جياع. سخروا منه، وقالوا له: كلوا بسكويت. وشتموه.

لم يستسلم أبي لأنه كان يحب أولاده وزوجته وجيرانه وأشياء كثيرة أخرى لم يمهله الزمن للإفصاح عنها. استل خنجره وطعن عسكرياً وأرداه قتيلاً. ولم يتمكن أبي من طعن بقية العساكر

وإيصال الطحين لنا لأنه كان وحيداً وصرعوه بأكثر من بندقية. ومنذ ذلك الحين أصبح أبي يعرف بـ"شهيد الطحين" بين أهالي الحي.

بعد استشهاد أبي. تعرضنا لتعديات وانتهاكات عديدة من قبل أولئك الذين يدعون الحضارة ويتهموننا بالهمجية والوحشية ويصرون على أنسنتنا.

صادروا شقيقاتي الثلاث (هند ومريم ومفيدة) واستثنيت من المصادرة لأنني كنت يومها مختبئاً في بطن أمي. وزعت شقيقاتي على بيوت القادة للخدمة والترفيه.

وألزمت أمي بخدمة المسيو ديكارت.

أنا أغضب.. إذن أنا موجود.

أنزلق على سكة الترام خفيفاً. أمنع نفسي من الجنوح، لأن البحر قبالتي يكشف لي عن سحره ويغريني بالأسرار. يخشخش شيء ما في صدري، هو مزيج من الدم والعواطف الملتاعة والغضب.

خط الترام يقترب من نهايته حيث البحر.

صورة العائلة قبل التشتت انطبعت في عيني وأعماقي وعلى شفتي انتماء وكبرياء وقبلاً. أحدق فيها كل ليلة. هند الصغرى، ومريم الوسطى، مفيد ة الكبرى. تحتضنهم أمي، وأبي في خلفية الصورة يبدو ناشراً جناحيه مثل نسر. شقيقاتي شبيهات بأمي. وجوه بيضاوية. جبهات شامخة وفسيحة ومشدودة والعيون داكنة السواد تمتزج فيها السخرية بالإدانة.

أنا شبيه بأبي. رأسي كبيرة وصلبة، وشعري أسود وأجعد مثل صوف الخروف وجبهتي حقل خريفي تعصف به الأنواء، والعينان رماديتان، البياض المحيط بالحدقتين يؤصل هذا الرماد، ويصبح داكناً.. ضارباً إلى الزرقة.

الوصول إلى البحر بات قريباً. عشق مجنون يدفعني للجنوح عن السكة. أجنح. واقف أمام واجهات محل "والت ديزني" للألعاب. أنظر إليها مشدوهاً. عرائس، حيوانات، قطارات، جنود، بنادق، رشاشات، دبابات. أدخل إلى هذا العالم ـ المحرم عليَّ دخوله ـ عنوة. أتوغل فيه وأنتشر بين غاباته السمراء البكر التي لم تخربها أقدام المتحضرين. أجلس تحت شجرة جوز هند. أراقب حركات السعادين البهلوانية وأضحك. تداعبني السعادين وترميني بثمار جوز الهند. لو تشرفني ثانية بالانتساب إليها!

يقول لي (الخواجة قواديس) صاحب المحل:

صباح الخير يا شاطر. كيف حال أمك؟

أتمنطق بالشاش وأسدد البارودة وأصرع عسكر، "الفرنساوية". تقبلني أمي. وتقول لي:

أصبح في البيت رجل.

وتحكي لي عن بطل تحدى الموت وقتل بينما كان يهرب كيسين من الطحين لأولاده الجياع.

أنظر إلى "الخواجه قواديس" وأتوسل إليه بصمت ليعيرني الرشاش الرمادي المخطط بالأسود والمعلق في صدر الواجهة أتذكر

العيب، ولا يفهم (الخواجة) توسلاتي ويدس في جيبي قطعة نقود من فئة العشرة قروش، ويقول لي وهو يغمزني.

سلّم على أمك.

أتجاهل القروش العشرة بكبرياء. وأعود إلى سكتي وأنا ألعن الخواجة وعسكر "الفرنساوية".

أقلّد صوت الترام: ترن.. ترن، وأبتعد وأنا أخشخش بالقروش العشرة. والسيوف والتروس. تقرقع كلها في جيبي ثقيلة وتكاد أن تثقبه. تخطر لي فكرة جهنمية. أخرج القروش العشرة من جيبي وأضعها على سكة الترام. وأنتظر مرور العجلات المستعجلة فوقها. كنت على يقين أن القروش العشرة ستصبح خمسين قرشاً بعد أن ترقّ وتتمدد، وأشتري بها أشياء كثيرة. كما توقعت أصبحت القروش العشرة بحجم النصف ليرة بعد مرور عجلات الترام فوقها. ألتقطها على عجل ولا أبالي بسخونتها. أذهب إلى بائع الفلافل أناوله النقود وأنا ألتهم السندويشة على عجل. يرمي البائع النقود في وجهي:

يا كذاب. يا غشاش.. يا مزوّر النقود. سأسلّمك للعسكري.

أهرب وأنا أضع البقية الباقية من السندويشة في فمي. وأبتعد.

السكة انتهت على رصيف البحر. أقفز فوق الرمل وأسافر إلى الزرقة. أراقب النوارس التي تهبط من علو وتهف فوق الزبد. أبحث بين الصخور الرطبة المعشوشبة المطلة على البحر عن أصداف. اقتلعها وألتهمها مع الدم الذي يسيل من أظفاري. أنظر إلى البعيد وأنا أتحسس نكهة الأصداف. للأصداف نكهة الحكايا والسفر.

وأصبح كل ذلك: محارات ويود ودماء وزرقة وبواخر وصيادين ومنارات.

***

يقطب "المسيو ديكارت" ويأمرني:

أغمض عينيك.

وأغمض عيني. تمضي فترة أخال أنها أبدية في ظلامها. تمر أمامي طوابير عساكر "الفرنساوية" وهي تسدد بنادقها على جموع الناس الذين خرجوا في مظاهرة يحتجون فيها على فقدان الطحين، وتطلق عليهم. ترتد الطلقات إلى قلبي. أرتعد وتفر العصافير من عيني المغلقتين.

يضحك المسيو ديكارت، ولا أفهم معنى لهذا الضحك الفرنساوي. ثم يأمرني:

افتح عينيك.

افتح عيني، يصفعني ظلام.

أنادي: أمي.. أمي.

تعانقني أمي وتأخذني إلى المطبخ وتفرغ في صحني بقايا الطعام من الصحون قبل أن تباشر في غسلها. وأشبع حتى أصاب بعسر هضم، وألعق الصحن بلساني. وأقول لأمي:

انظـري.. لقـد وفـرت علـيك غـسله. يـوم القـيامة. ستـشكرني الصحون وتقول لي: هنيئاً لك يا لاحس قعري.

***

أمي تعبة وأنا متوتر وشبعان. نمشي بخطاً ثقيلة.

الوقت مساء. غيوم خفيفة في السماء. والأرض حارة تعبق بالهموم. أتخلص من يد أمي وأقفز إلى وسط الشارع وأمشي على سكة الترام. تغضب أمي وتناديني كي أمشي إلى جانبها حتى لا يدهسني الترام.

أقول لها: لا تخافي يا أماه. أنا والترام أصدقاء، انتحى له عن سكته عندما اسمع رنينه الحار.

تتراءى لي محلات "والت ديزني". أفقد اتزاني وأطير إليها. ما أن يلمحني "الخواجه قواديس" حتى يخرج من المحل هاشا باشا ومرحباً.

يقول لي وهو ينظر إلى أمي: عفاك يا شاطر.

ثم يسلم على أمي ويدعوها لشرب فنجان من القهوة داخل المحل. اسبق أمي إلى الداخل قبل أن أسمع جوابها. ويصبح المحل بكل ما فيه.. ملكي. وأتوزع بين عوالم مسحورة وجنيات والهة وحوريات وحيوانات. تمر ساعات طويلة وأنا مخدر بالأحلام. أدعك عيني. هبط الليل والظلام في كل مكان، باستثناء نور خفيف معلق فوق رأسي. أجول في السواد، أسمع أنيناً وتأوهات وتنهدات قريبة. تطل علي

كاهنات بابل من كوات برجهن العالي، ويقهقهن. المح في قمة البرج عينين رماديتين تبرقان. أخطف الرشاش الرمادي المخطط بالأسود وأندفع إلى الخارج.

يستقبلني الليل ندياً. أمشي على سكة الترام.. وحيداً.

دمشق /1981

الجرد الحنون

"أنا مجنونة كعمتي "شمسة" بائعة النرجس البري التي كانت زوجة لرجل "قبضاي". وكان هذا "القبضاي" يعيرها على الدوام، بقصر قامتها وسذاجتها. وكان لا يكف عن نعتها "بالأرنبة" لأنها كانت تنجب توائم في كل مرة.

وكانت عمتي "شمسة" لا تبالي.

فهي تحب رجلها "القبضاي" والنرجس وطولها وخصبها.

وكانت تعتبر تقريع زوجها لها نوعاً من الغزل الخفي:

الزوج "القبضاي" لا يعرف كلمات الغزل الرقيقة لأن لسانه سميك وقاس مثل ساعديه. وإذا كان يعرف مثل هذه الكلمات، فمن حقه أن يضن بها عليها، لأنها لا تليق به. من أجل أن يبقى في نظرها "قبضاياً".

مسكينة عمتي "شمسة" كانت مخطئة في تقديرها، وساذجة أيضاً.

بعلها "القبضاي" كان يعني ما يقول حرفياً. وكان متضايق فعلاً من قصر قامتها وسذاجتها وخصوبتها. طلقها بعد رفقه عمر. وتزوج من

امرأة طويلة وماكرة ومسدودة. وعلى أثر هذه الصدمة فقدت عمتي "شمسة" عقلها.

الآن.. ورصانتي جبال، ومضرب للأمثال

ـ حالة لا أحسد عليها ـ لأنني عرجاء وقرعاء وخرساء.

أنا لم أخلق مشوهة هكذا.

كنت أقلد العصافير وأسابق الريح.. وشعري سنابل. من أجل هذا عشقني حبيبي. ومن باب التحسب للجنون وفحشه وأخطاره، حرقوا شعري، جوفوا ركبتي من الغضروف تخلى النطق عني.. ورحل بعيداً.

بدأ جنوني عندما استلمت برقية تنعي موت حبيبي في الحرب. كنت في الحديقة أنتظره مع الفراشات، وأقطف الورد. الجوري وأفرطه على شفتي لألقاه بشفاه مخضّبة. بداية الجنون كان رجفة.. صعقة كهربائية. لحظة وعي كاملة مفاجئة. والخيال مخدر بالأحلام. تعربشت على شجرة الرمان بحزني، وبعثت قبلاتي في الهواء. قبلات كثيرة ويتيمه لكل الناس الذين قتلوا واستشهدوا دون وداع. ثم انتحبت.

أنا لم أقصد أن أكشف عن عورتي. الحق كل الحق على شجرة الرمان. كانت عاليه وفروعها شائكة متشابكة، مزقت ملابسي. حبيبي قبل أن يذهب إلى الحرب طلب مني قبلة.

كدت أعطيه شفتي ليخضبهما حباً. كبت هذه الرغبة القاتلة في إلحاحها عملاً بنصائح أمي:

ـ الفم.. كالفرج، كلاهما عورة.

ـ ولكن يا أمي من الفم ناكل ونضحك ونغني، ومن الفرج ننجب الأطفال!

حبيبي رحل دون قبلة. وفمي يعبق بالورد الجوري. ورجال عشيرتي كلهم رصينون و"قبضايات". تجمهورا تحت شجرة الرمان. تنحنحوا.. همهموا.. وتوعدوا.. وضعوا سلماً من خلفي ـ ناحية الغروب ـ وألبسوني شوالاً، وربطوا الشوال من فمه:

ـ هكذا يصطادون الكواسر.

في الشوال ضاعت قبلي، وابيضت شفتاي.

جرجروا الشوال إلى الجرود وأنا محشوة فيه.

قيدوا عنقي بجنزير إلى جذع شجرة "زعرور". صبوا الكاز على شعري وأحرقوه. رائحة الشواء المتصاعدة من احتراقي، جذبت حيوانات الجرد، واختلط عوائي بعوائها.

النار تحرقني.. وأنبض أشواقاً، أحمِّل رياح الجرد قبلاتي.

تناولت حجراً وأربت به أبي "القبضاي" لأنه لم يقبلني قبلة واحدة في طفولتي، ولم يبتسم لي في صباي، صفقت من الفرح عندما رأيته يسقط على الأرض مغشياً عليه من الألم. لم أصفق طويلاً لأن أبي سرعان ما عاد إليه وعيه وحمل خيزرانته وجلدني بها. غاصت الخيزرانة في ركبتي، جوفتها من الغضروف وتناثر سائل أبيض منها.

الروح بيضاء.

أطلقت عواء أعاده الجرد إلي عارياً مع الريح.

جاء الليل وذهب "القبضايات" وتركوني وحيدة مع بعض كسرات من الخبز. هم "قبضايات" ومن حقهم أن يشبعوا ويرتووا ويناموا ويستريحوا.

ضبع من ضباع الجرد لونه أسود مثل الوجوه التي لم تغتسل بالمطر. اقترب مني وتفرسني بعينيه الواثقتين ونظراته المقتحمة والمفترسة.

انكسر على بعضي... واستسلم.

دار الضبع حولي، شمني، أطلق صيحة ثم رحل.

عنقي مذبوح، وشعري محروق، وركبتي مجوفة. والورد الجوري يبس دماً على شفتي. والضباع لا تحب الجيف دائماً.

أصوات الضباع والرياح والعتمة، ترصع ليل الجرد بالأنس. عز على الليل أن يتركني وحيدة، وحمل إلي ابن آوى.

تأملني بحدقتين دامعتين. هربت ودرت بجنزيري واختبأت خلف الشجرة. تركني ومضى..

أقضم كسرات الخبز، أقلد أصوات الحيوانات وأنين الجرد. أسافر إلى حبيبي وأزرع الجرد قبلاً. يضايقني الجنزير حول عنقي. أدخل يدي لأبعد عن رقبتي ذبحه، أجرب أن أرتاح. أنبض ألماً، وأعوي.

الأيام تمر ثقيلة.. يابسة.. وبطيئة.

صباح ما حمل إلي غيوماً رمادية ورياحاً باردة، و"قبضايات" يحملون فؤوساً وعصياً وسياطاً.

أدخلت حجراً مدبباً في فجوة ركبتي. وناديت "القبضايات" ليبعدوا عني هجمات الوجع والبرد.

رد علي "القبضايات" بفؤوسهم وعصيهم وسياطهم.

اغتسلت بدمي.. وأحرقتني حرارته.

وما عدت أحس بالألم.

الأرواح في الجرد حرة وطليقة، وأصوات الضباع وبنات آوى، نواقيس أنس في وحشة الجرد. ركبتي المجوفة أصبحت كهفاً لمخلوقات بيضاء رخوة. أدس أصبعي في التجويف وأتسلى بهرسها. أقسمها إلى نصفين وأراقبها مدهوشة وأنا أرى كل نصف يتحرك على حدة.

روح الدودة لا تتمركز في مكان معين. ليس للدودة قلب ولا شفتان. عواطفي بيادر راحلة في الليل. انتظر العتمة لتحمل لي أنس أصدقائي. وليل الجرد مشبع بروائح الجلود اللامعة الوبر.

حمل إلي ليل الجرد الأخير صديقي ابن آوى. اقترب مني ومسدت شعره. نفخ على ركبتي المجوفة بأنفاسه الحارة حتى فرغها من الديدان. وبقي طوال الليل يدور حولي ويبكي ويطلق عواء ممزقاً.

في الصباح جاء "القبضايات" وحلو قيدي. مشيت إلى البيت خلفهم وأنا أعرج بوقار.

وفي مكان ما، كان الجرد معتكفاً على جراحه ... يبكي.

بيروت /1974.

وكان اسمي: الشاطر حسن

"عمري: عشرون

علاماتي الفارقة: تغضن في الجبين، وشرخ في القلب.

عيوبي: الأحلام".

هذه آخر ليلة أقضيها في بيتي الذي ولدت فيه، ورسمت أحلامي على سقفه. سأرحل وأترك ضحكاتي وأناتي معرشة في طحالب جدرانه.

عمري عشرون. وهذه مرحلة حاسمة في رأيي.

(20) رقم ينتهي بالصفر. يتوقف الإنسان أمام كل مرحلة من مراحل عمره تنتهي بالصفر. يغوص متأملاً في أعماق نفسه، يتلفت حوله، ويتساءل بمرارة:

هل عشت حقاً كل هذه السنين؟

ويستغرب أن يكون قد فعل ذلك!!

في العشرين، يكتشف أمثالي فجأة، أن سقف البيت الذي يعيشون فيه، أصبح منخفضاً بالقياس إلى قاماتهم الطويلة والنحيلة

وأحلامهم الحارة. وحتى يحموا رؤوسهم من الارتطام ونزيف الشج، وبالتالي أدمغتهم من الارتجاج، وظهورهم من آلام الانحناء، يحلمون بعالم فسيح رحب. وعندما تتأجج هذه الأحلام، يشرعون عصا الترحال.. ويرحلون.

ليلة الرحيل طويلة. أطول من كل ليالي العمر مجتمعة. أحلامي ضاقت بي، وأنا أريد أن أتصالح معها بسرعة وأتحد كلياً بها. فأنا أجوف ووحيد دونها. فأسي مأجور، أقطع به حطباً لغيري، ومدفاتي بلا حب. بعد ساعات ينبلج الصبح، والصباح رباح، وانطلق من تحت هذا السقف المنخفض، وانشلع من جدرانه الطحلبية. أنا محزون بعض الشيء لأنني سأترك أمي وحيدة. أحسم هذا الأمر وأقول أنها تعودت على الفراق. وأن لم تتعود فيجب أن تفعل ذلك وترضخ له عن طيب خاطر لأن الملكية ـ الحب ـ ليس من حق زوجات وأمهات الحطابين.

يبقى التفسير الظاهري لأحلامي، والذي أتيت على ذكره، معقولاً ومقبولاً، أما التفسير الباطني لها؟ يقول لي عقلي: هس يا حمار.

أطبق فمي بأسناني وشفتي، وأستعيد أحلامي بخيالي. هذه الغامض من الرحيل هو البحث عن "طاقية الإخفاء". في حال العثور عليها، أعتمرها وأختفي. وأحل مشاكلي مشاكل أهلي وجيراني ووطني والعالم بأيام معدودة، أعيد التوازن إلى هذا العالم المقلوب، وأعيد له المعقولية أيضاً. ولن أتبجح عندما أقوم بهذا العمل العظيم. لأن القيام به ـ وأشهد بالله ـ دين في عنقي، وواجب علي. التضحية وفعل

الخير من الواجب أن يبقيا طي الكتمان، وإلا فقدا معانيهما وغاياتهما.

وأنا أحب الجندي المجهول الذي يموت بلا ضجيج. له رحاب السموات.. وقلبي وواجبي يدفعني إلى وضع الناس أمام مسؤولياتهم الجديدة في الحفاظ على الخير. نيتي حسنة والحمد لله، والخلاص لا يكون فردياً.

لي صديق عزيز على نفسي اسمه "المهلهل" ولقبه المجنون. سمي صديقي بالمهلهل، لأنه مهلهل العواطف والأحاسيس والثياب. ولقب بالمجنون لأنه يعشق التاريخ ويتقمص كل يوم شخصية من شخصياته العريقة. رجاني هذا المهلهل المقطوع من شجرة التاريخ بفأس غير آدمية. أن أبقى بجانبه ولا أرحل. وبكى كالأطفال عندما رأى إصراري على الرحيل وعنادي متوقداً في عيني. أحزنني بكاؤه وصراخه، وبقصد التخفيف عنه، بحت له بأحلامي وفردتها عصفوراً أمامه.

ابتهج ورقص وطاف فرحه زبداً غطى شفتيه وذقنه. وتوسل إلي كي أسرع في العودة عندما أعثر على "طاقية الإخفاء". وأن أعيره الطاقية لليلة واحدة حتى يتقمص القوة والتكنولوجيا ويقتل البرابرة. وأقسمت له بأنني سأعيره الطاقية.

مهنتي حطاب. أحرس الغابة. أقطع الأخشاب. وبيتي بلا ناطور ومدفاتي بلا حطب.

حلمي بدأ منذ زمن بعيد، عندا حضر الجندرما وأخذوا أبي وشفطوا دجاجاتنا وغلالنا، وقالوا أنهم سيقدمونها هدية للسلطان عبد الحميد في عيد ميلاده "الخمسمائة".

اخترع أبي ضربة فأس جديدة يزلزل وقعها الغابة ويفتح قلوب الحطابين وشراييهم على بعضها وتولد التحاماً بينها وبين الأرض. وقالوا عنه بسبب هذا، أنه هدّام. بعد اختفاء أبي من حسن حظي أنني ورثت عنه فأسه وحدة ضرباتها. ودمه وقلبه أيضاً. أقبض على الفأس وبضربة واحدة أقطع أضخم جذع.

يكبر حلمي، ينتشر في الغابة عرساً تحمله العصافير إلى أعشاشها وفضائها. والسوط يشرط ملابسي ولحمي ويأمرني لأمسك الفأس بيدي اليسرى وإلا..؟ وأنا حريص على تحقيق حلمي، وحرصي على حياتي نابع من هذا.

زفرة محروقة خرجت من أحشائي وأنا أرى انبلاج الفجر. استيقظت أمي وغسلت وجهي بدموعها:

سامحيني يا أمي. خدعتك عندما قلت لك أنني سأرحل إلى بلاد الله الواسعة طلباً للرزق، وأعود ومعي مال وفير، وأتزوج وأنجب، وأضمن لك شيخوخة هانئة ومريحة. تركت لك "طاقية الإخفاء" مفاجأة.

عجلي يا أماه، صري زوادتي واربطيها بالفأس، الفأس ضرورة من ضرورات البحث والترحال، وهويتي أيضاً.

حملت صرتي وفأسي. قبلت أمي وطلبت منها الدعاء والرضا والتجلد.

فوجئت بصديقي المهلهل مذبوحاً على باب الدار. سقطت الفأس من يدي وتبعثرت الزوادة.

عدت أدراجي خائفاً. كشت قامتي وأصبح السقف شاهقاً عليها.

بيروت /1980

الصبية والأخطبوط

"نموت قبل أن نستوفي حقنا من الطفولة"

▬ 1 ▬

في صباح شاحب من الخريف. وجدت صبية جثة هامدة بين صخور الشاطئ، عرفت من سروالها "الشيت" بأنها هند بنت أم هند.

لأن وجهها كان ممحواً.

ندبتها النسوة قائلات:

يا مكسورة الخاطر.

▬ 2 ▬

تركض إلى البحر مفجوعة ومرتعشة وجميلة مثل حورية. والبحر مالح وعميق، ولكنه أزرق ورحب يغري بأشياء كثيرة. اللعب والمرح والضحك والتأمل والتنهدات والبكاء والنوم، وتبكي هند. تثقب

دموعها الزبد. تجلس على حافة البحر وتحفر حفرة في الرمل وتندس فيها. تتنهنه من الذي كان وسبّب أوجاع قلبها:

ذلك الرجل، عمها، سيد البيت الذي كانت تناديه بابا. يستغل غياب أمها، يحاصرها، ويقرص حلمتيها. ثم يبطحها أرضاً ويعتليها وهي تلبس سروالها "الشيت". ويشخر، ويبقعه باللزوجة والدم.

وثديها بحجم التينة الشتوية. وحلمته صغيرة، وساقاها نحيلان كالقصب، وسروالها طويل وفضفاض ومالح مثل مياه البحر.

تقفز فوق موجة صغيرة. تسبح بملابسها. تتطهر وتذهب البقع عن سروالها ويصبح نظيفاً.

مياه البحر تكوي حلمتيها وتتألم. تجلس على صخرة تنقط ماء وملحاً، تعصر ملابسها وشعرها.

بودها أن تنزع ملابسها وتنشرها على الصخرة لكي تجف. همت أن تتعرى. رأت أخطبوطاً ضخماً يتسلق الصخرة. شدت دكة سروالها وأسرعت إلى البحر.

دغدغتها الأمواج والأماني: لو تكون مثل السمكة، جسد ناعم ومصقول وأملس، بلا نتوءات على الصدر أو تجويف بين الفخذين. ترى لماذا لم يخلقها الله سمكة! إنها تحب الله؟

للسمكة البحر كله والزبد واللؤلؤ والمرجان والإسفنج وهي ليس عندها إلا أشياء صغيرة ومرهقة. ملابس بالية وتجاويف في الرأس والجسد تسبب لها هماً وغماً ووجعاً وأطراف تعرقل أحلامها، وجدران سوداء تضغط على صدورها، وسقف سميك لا ينقل فرح المطر

والعصافير، وأرض ترابية رطبة تمتص دفئها وتجمد أطرافها. وذلك الإنسان الذي يقتحمهما بجحوظ كرشه وعينيه في الغياب، يقرص حلمتيها ويعتليها ويهرسها ويشخر، ويبقعها باللزوجة والدم.

ينغرف قلبها من الهم.. وتسبح.

مياه البحر تمتص ثقلها، تمحي تجاديفا، وتدوخ.. تستلقي على ظهرها مثل قارب وتنام فوق سرير البحر. المياه تهتز من تحتها وتشعر بخدر لذيذ.

لم يكن لها سرير في يوم من الأيام. فراشها "حشية" من قش وتبن وقسوته تعلم على جنبيها.

تراقب السماء المسكونة بالزرقة والنوارس، والسماء كالبحر.. واسعة وعميقة الزرقة. وهي صغيرة صغيرة مثل رأس الدبوس بالقياس إلى هذا الامتداد والعمق الأزرق. هي والنوارس سواء.. للنوارس حزنها أيضاً.

يثقل عليها النعاس والهم. تغفو وتحلم أنها عروسة البحر، ملونة ومصقولة وجميلة. بلا نتوءات.. أو تجاويف.

تغوص. رغبة ملحة تشدها إلى القاع. تهبط رويداً.. رويداً. تأوي إلى كهف من اللؤلؤ والمرجان. وتنام فوق فرشة من الإسفنج، رخوة.. رخوة.. مثل رغوة الصابون.

دمشق/ 1981

وحشة

شعرت المرأة بالوحشة. واصطكت من البرد.

ـ لو يسافر الليل إلى بلاد العشاق والشعراء. النوافذ والأبواب كتيمة. مصاريعها حديد. والخريف لم يأت بعد!

ترى من أين يجيء كل هذا البرد الذي يجلد العظام ويخترق شغاف القلب ويحرق حقول الأقحوان.

حملقت المرأة في الفراغ. سمعت نباحاً بعيداً لكلاب شاردة.

ـ لو كانت تملك جرأة الكلاب وحريتها لأعلنت وحشتها على الملأ بأعلى صوتها.

كيف؟ وفمها مليء بمياه آسنة، فطوره وطحالبه تعرش على جسدها. وتهرش، يتمزق الجلد ولا تنام.

نباح الكلاب يعمق وحشة الليل.

ـ لو.. لو.. عو.. عو..

مستعصيات تراودها بين الحين والآخر.

هربت المرأة من مستحيلاتها المجنونة إلى عد بلاطات الغرفة التي تعدها كل يوم مئات المرات ولا تحفظ عددها.

ذاكرتها رخوة في الحساب.. والزمن رخو.. شعرت برغبة في التدخين. مدت يدها إلى علبة سجائرها. كانت فارغة.

شراهة التدخين والاحتراق، كانت منذ أن كان ؟؟؟؟ والبرد.

نهضت تبحث عن علبة سجائره. ربما قد نسيها هذه المرة ولم يخبئها في مكان تجهله.. ربما تحت وسادته، أو في جيب منامته.

أعياها البحث.

تضاعف حبها للتدخين وعشقها للسيجارة منذ أن قرأت عن أخطارها:

كل سيجارة تقصر العمر خمس دقائق.

المدخنون أكثر عرضة للإصابة بالسرطانات.

ـ وما أطولك أيها العمر!!

اختلقت لبعلها الأعذار حتى لا ترتكب حماقة.

ـ له الحق أن يخبئ علبة سجائره ويخفيها عن ناظريها. هي تدخن ثلاث علب "حمرا" في اليوم ثمنها خمس ليرات وربع. وهو ليس عنده معمل سجائر. هي موظفة عند الحكومة وكان يجب أن تحتاط لهذا النفاد والانقطاع الليلي وتشتري حاجتها من الاحتراق.

ذرعت أرض الغرفة كالمجنونة. واستقطبت السيجارة كل جوعها التاريخي. وأصبحت الحياة سيجارة تقربها من نفسها والآخرين.

حدثت نفسها والجدران:

من تبتغي العيش الكريم عليها أن تتصحر ضد الارتعاش وتتحرر من عبودية الرغبة التي تطرد الضوء من العينين واليقين من القلب. الملك لله.. وللرجل أيضاً. وهما يباركان حقها في عفتها وكرامتها.

ولكن ما مصير أمة يستمد أقوياؤها قوتهم من قهر الأطفال والضعفاء، وقيمهم وشرفهم من مكان التبول؟

ركبتها موجة من الذعر، وتذكرت إيمانها القديم للسيطرة على نفسها:

من يولد من نطفة الفناء ومحكوم بالموت له بعض الحق في الحرية. تحقيق رغبة محروقة.. تدخين سيجارة، ولا يدفع أكثر من ثمن سيجارة.

اهتدت أخيراً إلى اسكات جنون الرغبة، تناولت عقباً ممسوخاً من صحن السيجارة، أشعلته وعبت منه بنهم وملأت رئتيها. سحرها الطيف الدخاني الذي نهض وتمطى في فراغ الغرفة مثل روح بيضاء، ترسم احتضاراً.. وتمضي.

أحرق العقب إصبعيها، ولم تبال بهذا الاحتراق الطفيف. تلة من الأعقاب الممسوخة كانت حصيلة العمر الذي مضى. وأنها تعتز بثروة الأعقاب هذه. ومن أجل أن تعيد اللمعان والانبهار إلى ما أعطي لها، كانت تتخيله جديداً ونظيفاً وشامخاً وعابقاً بالبراءة. وكأنها اختارته بملء إرادتها الواعية. ومع الزمن فقدت القدرة على التخيل. وعندما أصبح لديها مجال للاختيار كان الوقت متأخراً.

تجلس على الأريكة مهدودة، تحدق في الفراغ. ينفذ الفراغ إلى نسغها، وتدخن عقباً آخر. تسمع شخيراً من غرفة النوم. حاولت مراراً أن تعتاد على ضجة هذا الإنسان الذكوري الليلي الداوي في قلب العتمة، وإن تضيفه إلى قدرها كأساس متين، يبعث القوة والأمان في النفس.

ولكنه بقي.. مع البرد.

أرجعت عدم تعودها بعد عشرين عاماً من التكرار، إلى ضعف في إرادتها، وخلل في جهازها العصبي. نومها متقطع، بين الإغفاءة والأخرى تفيق على صراخها. وكل الذين تعرفهم ويعرفونها يحسدونها على سعادتها.

من أين يأتي هذا الصراخ إذن؟

كانت قد قرأت عن امرأة إسبانية هجرها النوم منذ ثلاثين سنة، ولكنها لم تحس بوطأة الليل وثقل الأرق وفداحته لأنها كانت تراقب حبيبها النائم طيلة هذه الثلاثين وهو يحلم ويبتسم. وعندما مات حبيبها جثم الليل على صدرها كالجبل وعذّبتها مرارة الأرق.

ـ لو يسافر الليل إلى بلاد العشاق والشعراء..

أشار عقرب الساعة إلى الثانية بعد منتصف الليل. أدركت المرأة أن الوقت متأخر جداً. وعليها أن تأخذ قسطاً من النسيان.

وأطفأت الأنوار.

دمشق/ 1984

امرأة ورجل

كان شتاء. وطريق سفر، ومسافرْين. كانا على وشك التعب.

امرأة ورجل التقيا صدفة، كما يلتقي المسافرون الذين يسافرون وحدهم في الوحشة كأنهما يعرفان بعضهما من أيام نوح.

سوت المرأة عصبتها، رفعتها قليلاً عن جبينها لكي يصل المسافر إلى عينيها ويعرف.. كم كانتا جميلتين. ثم فتحت صرتها وسحبت منها منديلاً مطرزاً بألوان زاهية احتفظت به عمراً في صندوق لمثل هذه المناسبة. وكان معتقاً برائحة التفاح والسفرجل والصعتر. وتناولت من الصرة كعكة مدورة على شكل عجلة.. قسمتها إلى نصفين، وناولت الرجل نصفاً فاحت رائحة اليانسون والتفاح والسفرجل والصعتر، لفحت وجهيهما واستقرت كحلاً حاراً في عيونهما، ودمعاً معاً.

مسحت المرأة دموعها بمنديلها، ومسح الرجل دموعه بكمه، وحدق فيها محاولاً أن يتذكر فيما إذا كان قد التقاها من قبل، سحابة بخور، أو ناسكة ترقص على أطلال المعابد والمدن التي كان يجوبها في الليل؟

قالت المرأة لقلبها: ربما كان زوربا حصانك البري الذي أصابه خسوف في عينيه من كثرة ما حدق في الخوف.. وعد النجوم.

وكان المسافر ينظر إليها ويتسلل عبر مسامها كالينابيع، ويزيل عنها تراكم السنين والغبار. وهي تنظر إليه مثل العصفور الدوري. تنقر إلفه، وتتلفت حولها بقلق ثم تستقر عيناها على حذائه. كان حذاؤه زورقاً في بحر مخنوق الأمواج. رفعت رموشها إلى السماء وأطلت على عصافير وجزر زرقاء ترتعش في العبوس وتشف كلما هبت الريح.

همس قلب الرجل: الطريق لازال طويلاً.

ونقلت إليه مسام المرأة برودة المقعد الخشبي الذي كانا يجلسان عليه. مد يده إليه. وكان مبلولاً.

تأملت المرأة يده، وكانت بستة أصابع..

وشهقت: يا إلهي!!

هتفت أصابع الرجل المبلولة: إنه من تأثير المطر. قطرات المطر يطول جفافها في الوديان.. لذا تبقى دائمة الخضرة.

ركن إليها وركنت إليه. وتكلما كثيراً دون أن ينبسا. حكى لها حكايته، وحكت له حكايتها. لامها على طول اختبائها، ولامته على طول غيابه، وأوجعته بقصتها المحزنة وبأسرارها المسكونة بالسحر.. وبكى.

ومسحت المرأة عينيها بكمه.

أشفق عليها لأن رأسها كان معصوباً وأنفها أحمر ورموشها ثقيلة ومبتلة، وتفوح من صرتها رائحة اليانسون والتفاح والسفرجل والصعتر. وسمته "أبو شفيق".

وأشفقت عليه لأن قدميه كانتا أكبر من حذائه، وجسده أوسع من ملابسه، وعنده في كل يد سبابتان. وأحد جفنيه كان مكسوراً، وسماها "أم شفيق".

فكّت "أم شفيق" عصبتها وبارحتها أوجاع الرأس. و"أبو شفيق" أجهد نفسه ليسوي جفنه المكسور.

أخرجت المرأة من صرتها بخوراً وتمائم وأصدافاً وحدوة حصان وناب غزال، وعقدتها في منديلها، وخبأتها في صدره. استقام جفنه المكسور، وأصبح مثل جفن النسر.

تحركت شفاههما معاً لأول مرة منذ أن التقيا: تهجأت اسمه في نفس اللحظة التي كان يناديها..

...وكان "شفيق" أغنية السواقي والمطر والجياد التي تركض في جميع الفصول.

دمشق/ 1985

الجنين الذي ذبح أمه

ـ 1 ـ

عندما أحست فاطمة برفرفة أجنحة خافتة تضرب جدران بطنها ركبها الهم.

عند فاطمة أولاد بعدد أصابع اليد، ولا معيل لهم سواها. ولن تطالبهم بشيء عندما يكبرون. إذ لا فائدة ترتجى من مطالب صعبة التحقيق، نحملها للآخرين رغماً عنهم. كما أنه من الوقاحة أن نطالب الأولاد بمكافأتنا على تقصيرنا وقصورنا في حقهم.

وفاطمة واقعية. ومطالبها لا تتعدى حدود الشبع والإفراج عن العصافير المذعورة المحبوسة في قفص القلب.

والوطن عطشان، ورجاله لن يصبحوا علماء أو عباقرة، إلا إذا صبّوا عنتهم فيك يا فاطمة، وجسدك مهدود من حمل الرجال والأطفال.

لجـأت فاطمـة إلى جارتهـا وسـألتها عـن أسـهل وأرخـص وأضـمن طريقة للإجهاض.

قالت لها:

ازرعي بيت رحمك بشروش "الخبيزة".

وشـروش الخبيـزة لهـا قـساوة الـصخر ولحم فاطمة طري وحساس مثل بؤبؤ العين.

تألمت فاطمة ورقصت مثل طير ذبيح:

ـ اخـرج أيها الصغير، لا خير في هذا العالم، أقسم لك بأنه شقي وتعـيس. ارحمـني.. أنـا الـساكنة في معـبد الجـرح، والمتعـبة علـى درب المجدلية.

أخ...

والجـنين لا يـصدق أمـه، ولا يبالـي بأوجاعهـا. ويـزداد التـصاقاً وتمترساً في بيته. ويأبى أن يفارقه.

وألم فاطمـة لا يوصـف. يأكـل اللحـم، ينقـر العظـام ويفلقهـا ويسحب نخاعها. يجوف الروح ويسعرها صراخاً.

لم تـتحمل فاطمـة الآلام الـتي سـببتها لهـا شـروش "الخبيـزة" ومـن حلاوة الروح، سحبتها من بيت رحمها. وكانت الشروش تقطر دماً.

لم تـيأس. هـناك ألـف طـريقة وطـريقة للإجهـاض، لجـأت فاطمـة إلى إحـداها. وشـربت طنجـرة مـن مغلـي الكينـا والـزنجبيل والقـرفة، ونقعـت جـسدها في حـوض مـاء تـصل حـرارته إلى درجـة الغليان. بقـبق جلـدها وتـسلخ. جاشـت أمعاؤهـا وانفـرطت وزنـرها الألم مـن جديـد.

سكاكين تمتد من أسفل البطن وتمزق الحجاب الحاجز. والجنين يسخر من محاولات أمه يتشبّث بأحشائها بعناد وإصرار أكثر من السابق. اسودت الدنيا في عيني فاطمة، وركبت رأسها الذي كان يدور، ولجأت إلى طريقة ثالثة للخلاص من جنينها العنيد.

كانت هذه الطريقة لا تخلو من القسوة والعبث والتحدي. قرفصت ونكشت بيت رحمها "بسيخ اللحمة". تقاطر الدم من كوعها وهي تحفر وتجوف وتمزق.

زغردت فاطمة عندما رأت الدم ينفر منها. ثم سقطت "لحمة" صغيرة بحجم الإصبع وطافت فوق بركة الدم التي كانت تسبح فيها فاطمة.

ـ إلى الجحيم أيها العنيد القاسي. قلت لك إنني ساكنة في معبد الجرح ومتعبة على درب المجدليه، وأن لأخير في هذا العالم، لم تصدقني. يامن أوجعتني كثيراً وأبيت ألا أن تتعمّد بذبحي.

▬ 2 ▬

ترحم الأولاد الخمسة على أخيهم الذي ذبحته أمهم "بسيخ اللحمة"، وجاء قبل أوانه بخمسة شهور. وبكوه بدموع صامتة ومدرارة أحرقت وجوههم الشاحبة والمغبرة وحفرت قنوات فيها وسحّت من أسفل ذقونهم.

يجهلون اسم أخيهم المقتول، واسم أبيه، كما كانوا يجهلون اسم أبيهم أيضاً.

مـرة واحـدة فقط، تجرؤوا وسـألوا أمهم عنه. تفرست في وجوههم بغضب، ثـم أشارت لهم بأصبعها إلى خرابة تعج بالنفايات تطل نافذتهم علـيها. وتحاشــت النظــر إلى عـيونهم العـشرة الـتي امـتلأت بالذعــر وتنكست أهدابها.

ـ 3 ـ

دمـاء فاطمـة لازالت تلهث بخاراً، وتنبض بعنف من مكان الذبح. تتساءل فاطمة وهي تتأرجح بين الصحو والضباب:

كيف استطاع جسدها اختـزان وحمل كل هذه الدماء السخية الفوارة والقرمزية، دون أن ينفجر؟

تتناول الجارة وسادة تدسها بين فخذي فاطمة لتوقف نزيفها.

غشاوة بيضاء حجبت فاطمة عن العالم.. وغابت.

ـ 4 ـ

يلتقط الأولاد أخاهم المقتول. يسجونه في علبة صدئة كانوا قد عثـروا علـيها في الخـرابة. يغطـونه بـأوراق الزلـزلخت. وشـيعوه في مـأتم خاشـع، وسـاروا رتـلاً حـزيناً إلى الخـرابة. حفـروا حفـرة صـغيرة تحـت شـجرة الزلـزلخت، وواروا الـنعش الـصغير الـتراب. ثـم جلـسوا صـامتين دامعين. كانت الخرابة منتفخة بالأبخرة والذباب والقيظ.. وساكنه.

تناهى إليهم صوت عويل وبكـاء جارتهم.

خرجوا عن صمتهم وبصقوا على أيديهم وأزالوا الدم عنها.. ثم ركضوا.

كانت فاطمة تطفو فوق بركة دم، شاحبة وفمها مزموم وعيناها كبيرتان. لم يسبق لهم رؤية عينين بهذا الاتساع الممزق انتحبوا وهم يقتربون منها أكثر.

وتقرمزوا بدمائها.

دمشق/ 1980

حكاية ولد من جيل يأجوج ومأجوج

كنت جائعاً.

رسمت على دفتري أرغفة خبز مستطيلة ومستديرة.

امتلأ دفتري خبزاً، وبقيت جائعاً.

عندما قصفت قريتنا الجنوبية، وتهدم بيتنا. أصابتني شظية في رأسي. لم أسعف في حينه، وتقرح جرحي ونزّ، واستمر هكذا لمدة شهر أو أكثر. هذه المدة التي قضيناها في الملاجئ والسير والبحث عن مأوى والانتظار أمام الحواجز الثابتة والطيارة التي كانت تسألنا عن هوياتنا. وكنا نلجأ إلى الكذب حيناً والمراوغة حيناً آخر، كي ننجو من مصير الذبح ع الهوية. وكنا بالفعل قد تركنا هويتنا في قريتنا. أخوتي تحملوا مشاق التهجير بصبر وشجاعة، لأنهم كانوا أكبر مني، ولم يصابوا بشظايا في رؤوسهم. إلا أنا.. فقد كنت ولازلت أنعق وأبق من الجوع الذي كان إحساسي به يفوق إحساسي بألم جرحي الذي كان ينزّ ويتفسخ. قطع الأهل أملهم من شفائي وتوقعوا موتي بين لحظة وأخرى. غرغرينا، حمى، جوع، عطش، خوف وتعب، والحرب الأهلية على أشدها.

والحصول على رغيف أو شربة ماء أو مأوى، معجزة من أكبر المعجزات وهموم جديدة تضاف إلى قائمة همومنا.

لم أمت!

قال أبي: أطفال الفقراء مثل الصبار.

استقر بنا المقام في قرية تقع على مشارف البحر. أشفق علينا أهلها، وسمحوا لنا بالإقامة في بيت شبه متداع ومهجور. رافق استقرارنا تطورات جديدة حدثت في محيط أسرتنا. من هذه التطورات تحوير اسمي من سعيد إلى ديدو. من جهتي لم يكن أمامي أي خيار لأنني ولد جائع همه الوحيد هو الحصول على الطعام. حتى ولو سرقوا مني اسمي فلن أبالي.

قالت أمي:

اسم ديدو ذو رنة موسيقية محببة. وتدليعي به له فوائد جمه وعظيمة:

أولاً: أنه تدليع مجاني لا خسارة من ورائه.

ثانياً: هو تقليد للذوات الذين يحبون تدليع أبنائهم وكلابهم بنفس الأسماء.

ثالثاً: اسم ديدو يوحي أن صاحب هذا الاسم من الشبعانين المتوردي الوجوه.

رابعاً: إن وقع اسمي الجديد على أذني سوف يبهج نفسي ويفرحها ويجعل حواسي خدرة ومسترخية. وأعود إلى نموي الطبيعي أسوة ببقية الأولاد الذين تنمو أجسادهم بصورة متناسقة مع رؤوسهم، خلافاً لما

يحدث لي. فجمجمتي تنمو بإطراد على حساب جسدي حتى أصبحت وكأنها مركبة تركيباً، وليست لي. نموّي الغلط هذا، كان مصدر ذعر للذوات الذين كانوا يستغفرون الله ويتعوذون من الشيطان الرجيم عندما كانت أبصارهم تقع علي. ويقولون عني أنني من جيل ياجوج وماجوج الذي سيغزو العالم مثل الجراد ويغرقه في الخراب. متجاهلين السبب الرئيسي لنموي الغلط.

أرنو إلى البيت المجاور لبيتنا. احبس أنفاسي، يتحشرج صدري ملهوفاً وأنا أترقب خروج صاحب البيت ليحييني بابتسامته العذبة التي كان أنسها يبهرني. لم يسبق لي أن رأيت في حياتي ابتسامة فيها كل هذا الضوء. وأيقنت أن هناك شموساً أخرى غير الشمس المعلقة في السماء. كنت أعرف أن الجار الذي أترقب طلته كل يوم منذ ساعات الفجر الأولى، سوف يناديني بصوته الرخيم ذي البحة الحنون، والتي أحببت اسمي الجديد من خلالها:

- ديدو..

واركض إليه كبرق، وأنا أقصف من شدة الفرح.

يتأملني حزيناً، يربت على كتفي، وأحس أنني أسبح بمياه دافئه.

يطلب مني جاري أن أشتري له الصحف، وينقدني ليرة ورقية تطقطق من جدتها. كمكافأة.

كان جاري يلقب بـ "أبو سعدى"، ولكن الجيران قالوا هذا اسمه الحركي.

وسواءً كان "أبو سعدى" اسمه الحقيقي أو الحركي، فأنا أحبه بهذا الاسم أو غيره. بالإضافة إلى الشموس التي كانت تسطع من ابتسامته والحنان الذي كان يقطر من يديه وصوته، فقد أجاد "أبو سعدى" الرسم، وكتابة الشعر، وصيد العصافير. وعندما وقعت الحرب الأهلية. كان "أبو سعدى" مستغرقاً بهذه الأشياء كلياً.

وقال له أهالي القرية:

لا بد من الالتزام الفعلي يا "أبو سعدى" الكلمات تخرس، والألوان تبهت عندما يلعلع الرصاص.

انخرط "أبو سعدى" في صفوف المقاتلين، وكان أكثرهم جرأة وأشدهم حباً.

باعتباري أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يفقه شيئاً من كلام الصحف، كنت أنتظر "أبو سعدى" ليسرد لي الأخبار الهامة بطريقته الخاصة. كنت آمل أن تنقشع غيوم الحرب وتنفرج الأحوال، ونعود إلى بيتنا وأرضنا وبقرتنا التي تركناها حاملاً في شهرها الأخير. لن نتذوق شمندورها، ولكن لا بأس، سنتذوق حليبها الدافئ، واضع فمي على ضرعها.. واشفط. أدعو إلى ربي أن تكون ضروعها سالمة من الشظايا والتقرح.

يقرأ "أبو سعدى" أفكاري، ويقول لي:

لا يصح إلا الصحيح يا ديدو.

ثم يحدثني عن دوره في هذه الحرب:

أنا لست قائلاً. من أجلك يا ديدو، ومن أجل كل أطفال القرية أحمل "الكلاشين". لم أقتل أحداً، ولكني لن أقف مكتوف اليدين إذا ما تعرضت قريتنا للخطر.

ثم يطلب مني أن أقبع إلى جانبه ساكناً حتى يصطاد لي عصفوراً. استجيب لطلبه، وأقبع ساكناً مثل الخلد. أتأمل الصنوبرات الشامخة، وأتمنى أن أكون شجرة. أناجي ربي ليسوق لي عصفوراً سميناً إلى شجرة قريبة. ترفرف "بوبانه" وتحط على بلانه يابسة. يسدد "أبو سعدى" ويضغط على زناد البارودة وتخر "البوبانه"* صريعة ممزقة. أركض فرحاً والتقطها. أضمها وأشمها وأقلبها بين يدي، وأهم أن أبتلعها بريشها وبحبات الخردق التي جندلتها يأتيني صوت "أبو سعدى" معاتباً:

ـ لا يا ديدو.. لن تتذوق طعمها إذا أكلتها بريشها. انتفها أولاً ثم أشوها على النار. لأكل "البوبانه" طقوسه يا ديدو.

ويناولني رغيفاً.

امسك "البوبانه" بيد، والرغيف باليد الثانية. أشويها، وأدسها بين الفينة والأخرى بالرغيف حتى لا يذهب شحمها ودهنها هدراً.

بعد الشي.. كان قلبي ينقبض. "البوبانه" تقلصت وتحولت إلى حبة زيتون صغيرة. ألفها بالرغيف حزيناً.. واقضم. وأتذوق لأول مرة نكهة العصافير.

---

* البوبانة: أصغر أنواع العصافير.

قال لي "أبو سعدى"، إنني موهوب في الرسم. وأعطاني دفتراً وأقلاماً ملونة. ووعدني أن يحضر لي عند عودته "مشكاكاً" من العصافير.

رسمت أرغفة خبز.. وبقيت جائعاً.

خيم الليل و"أبو سعدى" تأخر.

وما عاد بعدها إلى داره أبداً.

دمشق/ 1980

رقية

ـ 1 ـ

كبرت إلى الأربعين. عدت لتوي من المشوار وأنا ألهث. مسكت أنفاسي، وتذكرت أنني عشت.

ياسين في زنزانة. وأنا في زنزانة.

في يوم.. في عام.. في فرح. سيشملنا العفو والبراءة.

ويأخذني ياسين إلى البحر. وتزفني النوارس والأمواج إليه:

ـ مبروك عليك ياسينك يا رقية.

ونفرح.. ونضحك في عناق الموج المتحرر من أعنّة الحصار.

ـ 2 ـ

أنا رقية التي كانت تخاف من حالها وخيالها وتسكنها رعدة وتتعثر بلسانها ونظراتها ووجيب قلبها، وتحب عرائس الجبصين والأراجيح والطابات والبحر والنجوم وشرائط الحرير الملونة المعقودة

على مزارات الأولياء، وترتدي مريولها الأزرق ولحم قدميها في فصول الدنيا الأربع (كانت عمتي بهيه تخيط لي مريولاً في كل موسم برد. له جيب كبير في وسطه، وكنت أختلس النجوم كل ليلة وأحشرها فيه. ويحترق من شدة حرارتها ولمعانها. وتوبخني عمتي:

ـ أحرقت جيب مريولك يا رقية يا شقية. متى تكفين عن هذه العادة؟

ولا تصدقني عندما أحكي لها عن نجومي التي أحرقته.

وحده كان ياسين يصدقني.. وأنا أيضاً كنت أصدقه عندما يحكي لي عن البحر ومدنه المسحورة القابعة في أجواف الحيتان).

الكبار لا يعيرون أفراحنا أية أهمية، ويمدون المسافات المزروعة بالقفر بين بعضهم وبيننا.

كنت على جهل مطبق بالأسباب التي جعلتني مرعوبة. إلى أن قالت لي أمي ذات يوم أنها لم تتجبني من بطنها.. وإنما من زفراتها.

وياسين قالت له أمه الكلام ذاته.

وهكذا كان:

عندما خلقني الله كان مستعجلاً جداً لم يقصد بي شراً، وإن كان قد وضع قلبي مكان عقلي، وعقلي مكان قلبي. فلأنه مثلي.. مغرم بالطابات والعرائس والأراجيح والبحر.

ـ 3 ـ

أنا التي كانت رقية الصغيرة.

كبرت أربعة عشر عاماً. بدأ البرد يجمد يدي.. ولا أستطيع أن أفردها كحمامة لأمسك الطابة وحبل الأرجوحة وقلبي الخائف. وأطويها على حنان كان من الممكن أن يكسبني طراوة النمو إلى أعلى. كما أنني ما عرفت البحر ا لذي حكى لي ياسين عنه. لذلك لم أتعلم السباحة وبقيت أغرق في شبر ماء. ويتوحل مريولي ووجنتاي وأهدابي. أصلي بقلبٍ محروق كي تصبح العيون من حولي بحاراً فيروزية، تخلصني من لعنة الخوف والوحل وقصوري. أما عن النجوم.. آه.. سرقها العسكر مني وغطوها بالتكنولوجيا والدخان. وكانت العجوز أم شاهين كلما سمعت هدير طائرة، ترفع ظهرها المكسور وعينيها المزمومتين إلى السماء.. وترثي زرقتها في عيني.

ـ يا لطيف.. أخر وقت.. القيامة أقرب إلينا من أنفاسنا.

وهكذا..

استبدلت بالنجوم البعيدة القبور القريبة. لم أجد صعوبة في ذلك لأنني زفرة. ما عاد احترق جيب مريولي. رائحة شواء سكنت أنفي بقيت طويلاً أجهل مصدرها.

.. ربما كان كبدي!!

كان بيتنا يطل على المقبرة. وكانت المقبرة مدرستي وملعبي. وقبورها دروسي وأساتذتي. تعلمت القراءة والكتابة من شواهد القبور

البيضاء المنقوشة بالمراثي ذات الحروف السوداء. وحشتي وفضولي دفعاني إلى التعلم والاجتهاد، كي أتعرف على هويات الناس الذين يرقدون بصمت. ولا يتثاءبون أو يتهامسون أو يحلمون.

وأجدت نسخ المراثي الحزينة على ظهر أوراق النعوات التي كنت أعثر عليها في المقبرة. وكان خطي جميلاً.. لا يقل إتقاناً وجمالاً عن كتابات الشواهد. حتى أنه أصبح بإمكاني أن أكتب مرثية لنفسي:

(هنا ترقد رقية التي ما عرفت البحر... عارية من مريولها الأزرق).

كم أحببت هؤلاء الناس الصامتين الذين علموني القراءة والكتابة بالمجان! ولم يهزؤوا بي أو يضربوني أو يتهمونني بالغباء والجنون.

ذات صباح، قبل أن انطلق إلى يومي، وجدت بقع دم على سروالي. أخافني الدم! وأظلمت الدنيا في عيني:

ـ ستموتين يا رقية. لن تكون لك شاهدة بيضاء تعرف ؟؟ ولا أهة في مرثية. الزفرات يا رقية لا تؤرخ على شواهد القبور. تضيع في الهواء. شهقة. عجلي إلى المقبرة ونامي فيها.. أصبحت ميتة.

في طريقي إلى المقبرة. كان إحساسي أنني ميتة. ونسيت قلم الكوبياء الذي كنت أنسخ به المراثي. خفقة بحرية وشوشوت قلبي وحملتني إلى غرفة صغيرة تقع في مدخل المقبرة يسكنها الشيخ مسعود الذي يسهر على راحة الأموات ويحرص عليها. تمددت على أرض الغرفة... وأغمضت:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.

وكان صوت مسعود يأتيني من وراء موتي.

رفعني مسعود عن الأرض ومددني على طراحة.

ـ لا أريد أن أموت... أرجوك يا شيخي أفعل شيئاً من أجلي حرام أن تموت البنات قبل أن يتعلمن السباحة ويكتشفن المدن المسحورة في أجواف الحيتان. "اقترابي من الموت الذي يخصني وحدي فجر حنيني للبحر".

ـ العني الشيطان يا ابنتي.

ـ رقية.

وسكب مسعود ماء في طاسة قرأ عليها أكثر من ساعة بشفتيه. وكان يتأملني بحواسه الخمسة حتى تعب. سكب الماء فوق رأسي وسال على وجهي وعنقي ومريولي واستقرت بضع قطرات منه في سرتي.

شهقت:

ـ يا إلهي... أنا عندي سرة!!

وكان إحساسي بهذا الاكتشاف.. مدهشاً. المياه أنعشتني، وشعرت بالخدر من تأثير مشاعر تتدافع مثل أنفاس الجياد الراكضة. ثم لا تلبث أن تنطحن وتتفتت كالصخور تحت ثقل عجلات مدحلة قاسية.

نظرت إلى النافذة حيث كنت أجلس متأملة القبور.. وكان بعيدة. أبعد من المسافة الحقيقية التي تفصلها عني.

ـ يجب أن لا تموتي يا رقية الآن. أمامك مشوار طويل. لا تصدقي الكبار الذين ينشفّون بحرك ويهدّون مدنك المسحورة. ياسين أقسم لك أنها موجودة، وعندما يعود سوف يحضر لك لؤلؤة منها.

ـ ستبرئين يا رقية.

قال مسعود وهو يحدق بي.

ركضت كأنني أتخلص من كابوس. أمرجح رأسي في الشمس.. وأحتار:

كيف تنقلب سحنة الإنسان من حمل وديع فمه عشب. إلى وحش فمه لحم ودم؟

اختبأت بين القبور الشاهقة التي كان مسعود يفرش فوقها مظلة خضراء كلما توسطت الشمس كبد السماء، حتى لا تبهت مراثيها وتذبل أعشابها وزهورها. لمحت امرأة عجوزاً، ربما في الثمانين تناجي قبراً.

قلت: مسكينة.. لا بد من أنها وحيدة.

كان هناك شاب، ربما في العشرين، يتلصص على المرأة العجوز. ملابسه مقطعة ومبقعة بالألوان، ويحمل سطلاً بيده. هاجم الشاب المرأة وعراها من ملابسها ودلق السطل فوقها، وكان فيه دهان زهري اللون، أصبحت العجوز عروساً.

ـ سوف يطرشونك يا رقية مثل الجدران عندما تصبحين عتيقة.

لم تعجبني الطريقة التي طرش بها الشاب المرأة العجوز. الجدران تطرش بتأن ومهارة. لماذا تطرش العجائز بفوضوية؟

أرخى الشاب سرواله وانبطح فوق العجوز. لم تصدر عن العجوز أية مقاومة أو احتجاج. ربما لأنها متعبة، وهو لم يتعب بعد، أو ربما عقد لسانها الخوف. أو ربما.. ماتت!!

كدت أن أصرخ. تداركت الأمر وأغلقت فمي بيدي. رفع الشاب سرواله وفتح حقيبة المرأة وأخذ محفظة نقودها وهرب. صرخت المرأة واستغاثت. كدت أن أهرع إليها (لكي أفهمها أن الشاب أخذ أجرة الطرش، وإن كل شيء بثمن). قوة كانت تدفعني لأبقى بعيدة عن مشاكل الأحياء لأنني لا أفهمها. وليس عندي مقدرة أو سلطة على حلها. عندما جاء الشيخ مسعود كانت المرأة تنتحب. ورمى جلبابه عليها.

ـ كنت عذراء. اغتصبني مجنون مهووس، وسرق نقودي.

تسللت إلى البيت وأنا أشك بصحة ما رأيته لأنه كان أكبر من مجال رؤيتي ومقدرتي على الفهم.

كانت أمي تقرفص أمام طبق الغسيل والعرق يتصبب منها:

ـ تعالي ساعديني. أصبحت بطول الحورة "طول وهبل".

كنت جائعة ونسيت بقع الدم. تناولت قصعة الفخّار وذهبت إلى ولي مبارك مقامه أخضر وعمامته خضراء. وقفت ضمن طابور الناس بأدب إلى أن جاء دوري، وملأت قصعتي بالحساء الساخن الذي كان يوزع مجاناً على الجائعين من قبل أصحاب النعم. وأنا في طريقي إلى البيت لعقت من الحساء حتى لا يندلق. تغمس أنفي وسال على ذقني أدامه ورسم دائرة بنية حول فمي.

ـ أنت بنت فجعانة.. تباً لك.

قالت أمي وهي تتناول القصعة من يدي وتنظر إلى وجهي. تقلصت شهيتي للأكل.. وما عدت راغبة في المزيد.

في الليل ألمتني بقع الدم اليابسة على سروالي. نزعته ومشيت همساً على رؤوس أصابعي. فركت البقع بالصابون والماء. وبقيت في مكانها ثابتة الألوان. شهقت بالهموم والبكاء. سمعتني أمي ونهضت وخطفت السروال من يدي.. وزغردت.

ـ أصبحت عروساً يا رقية.

ومنذ ذلك اليوم الدامي. منعتني أمي من الخروج لأنني كبرت إلى الأربعة عشر مثل القمر.

بعد أيام اشتاقت إلي المقبرة. وجاء مسعود إلينا ، وقبل أن يدخل همساً في موضوع يخصني. بشر أمي أن مأواها الجنة مثل كل النساء الصالحات الصابرات. غمزتني أمي حتى أخرج من الغرفة وأحضر إبريقاً من المياه الباردة لعمي الشيخ مسعود ، الذي كان عطشان ويغص بجفافه.

قال مسعود لأمي: يشرفني أن تكون حماتي.

وكان من الواجب أن أفرح لهذا النبأ لأنني سوف أكون قريبة من المقبرة وذات شأن فيها. بل ربما نصبت نفسي ذات يوم ملكة عليها.

ياسين كان ينغص علي هذا الفرح.

قرقرت المياه الباردة في حلق ا لشيخ مسعود وتدفقت إلى جوفه كأنه قربة ضخمة ، وكركر بطنه.

اشتقت إلى الحمار وهو يدلي برأسه إلى الماء ويعب منه بصمت.

- 4 -

أنا رقية المرعوبة. كبرت إلى الثلاثين في بيت زوجي مسعود. وكان عندنا غرفة للنوم وغرفة للخبز اليابس.

لم يمنحني مسعود ولداً. وما أطعمني في يوم من الأيام رغيفاً ساخناً.

الذين يشتغلون بالمقابر ويجاورون الأموات.. يحملون برودتهم وعقمهم. وفشل مسعود رغم جهوده الكبيرة في هذا المجال. أن يعوض الذين رحلوا عما فاتهم من متع.. وخصب.

لم أتذمر. أنا شهقة. رائحة شواء تسكن أنينها.

مسعود قدري. اللّه وأمي اختاراه لي. رضخت لمشيئة من هم أكبر مني.. وأقوى. مسعود معه نقود وشحيح. كان القرش الذي يدخل جيبه لا يخرج منه أبداً. وكنت أذكره أننا محكومون بالموت، وأن الموت تجربة لا بد أن يمر بها جميع البشر، وعندما نموت لا نأخذ معنا سوى "قطنة" صغيرة يسدون بها منافذ أبداننا. وأتضرع إليه كي يشتري لي رغيفاً ساخناً، وكان يتجاهل تضرعاتي وأنيني وصوت الفئران التي تبدأ قرضها للخبز اليابس في الليل. وكان يغيظني عندما ينكر وجودها.

شكوت همي إلى أمي. أحضرت لي قنينة سم الفار من عند العطار. ودفعت ثمنها من عبها. دهت الخبز اليابس بالسم ووضعته على عتبة غرفة المؤونة. وكنت أمني نفسي في ليلة هادئة زاخرة بالأحلام.

لم أخبر زوجي لأنني كنت متأكدة أنه سيعارض هذا الإسراف والهدر.. وينكر وجود الفئران، وطوال الليل بقيت الفئران تقضم: تراك.. تراك. وما أغمض لي جفن، وندبت سوء طالعي.

في الصباح كان زوجي مسعود ممدداً على عتبة غرفة المؤونة وفي فمه قضمة خبز يابس عليها سم فار!!

حزنت عليه، وبكيته كثيراً وتقرح وجهي. حتى ولو كان لا يشبه أبي الذي مات قبل أن أعرفه. مسعود كان "عشرة عمر". والعشرة لا تهون أبداً على رقية المرعوبة.

بعد يومين من موت مسعود، دشرت في المقبرة على هواي. تذكرت المرأة العجوز التي فقدت بكارتها بين القبور، وكان نزفي أغزر من نزفها..

الدنيا لي. انظر إلى تيه النجوم في السماء. ناداني صوت:

- رقية.

برقت نجومي وشممت رائحة البحر. خفت من هذه النشوة المفاجئة.

لا أحد يعرفك يا رقية.. من يناديك في الليل؟

- رقية.

ناداني الصوت ثانية. التفت، وكان ياسين.

غاص قلبي، وتفجر حنيني للبحر.

ـ أنت أنت يا رقية. هل تذكرين عندما كنا نركب خشبة ونتخيلها حصاناً ونطير؟

عيب يا ياسين أن تهزأ بامرأة كبرت إلى الثلاثين.

ـ أنا لست رقية.

أنكرت نفسي وأصررت على إنكاري.

ـ التي كانت تخاف من حالها وخيالها لا تكبر أبداً يا رقية. ما أتعس الناس الذين ينكرون أنفسهم أمام أصدقائهم!

كشفتني يا ياسين!! يا لقلة حيلتي ووهن دثاري.

اختبأت خلف جفني.. وبكيت. اقترب مني ياسين ودس في كفي لؤلؤة. وكان بياض اللؤلؤة يرتعش ضوءاً وينعكس على حزني ويشتته.

تركت ياسين يمسكني من يدي. ومشينا طويلاً حتى تعبنا كان يحدثني عن البحر والجزر المحشورة بالنوارس والمحارات وشباك الصيادين.

وحدثته عن الخبز اليابس والفئران والسم.

أخذني إلى بيته، ونمت على الكنبة ونام على الأرض. في الصباح كنت منشرحة لأن بيت ياسين مرسوم بألوان الأحلام والبحر. ناولني ياسين رغيفاً ساخناً كان قد أحضره لي قبل أن أصحو من النوم. لفحتني مواسم الصيف والحنطة ودحرت رائحة الشواء التي سكنت أنفي.

عندما خرجنا سوية، قذفنا الناس بقمامة ألسنتهم وفضلاتهم. واسمعونا كلاماً أحسست بثقل وقع معانيه التي كنت أجهلها.

ياسين بجانبك يا رقية.. لا تخافي. ماذا يهم إذا كان العالم ضدك؟ وعدك أنه سيأخذك إلى البحر، ياسين لا يكذب. هيا أسرعي الخطى ولا تبالي.

في الطريق اعترضنا رجال لا نعرفهم.

ـ أنت رقية؟

ـ ....

ـ تنامين عند عشيقك ولم يمض يومان على وفاة زوجك؟ كان يجب عليك الدخول في "العدة" مثلما تفعل النساء الفاضلات.

ـ من تقتل زوجها بمساعدة عشيقها تستحق الشنق.

حاول ياسين أن يخبرهم بأنني لست رقية التي يبحثون عنها.. ولم يصدقوه.

ووضعوا "الكلابشات" في أيدينا.

دمشق/1985

أبطال من ملح

من مجموعة "يوم هربت زينب"

بعد أن استنكر القاضي هزيمتها وانكسارها، توسدت شخوصي جرحها، ونامت على أوراقي تحدوها أحلام البطولة:

ـ الأحلام المهربة طفل غير شرعي لضحك ماجن..

ـ الرماح لا تكسرها العواصف.. ولا تهزها الريح!!

والأحلام سمسار الأفراح الآتية، والرماح حديد وقسوة، وهي من لحم ودم وأحلام.. تخطئ أكثر مما تصيب، لنقص فادح في هرمون التكتيك..

مسكوبة على أوراقي كدموع مهاجرة في رمد الهجير، ومزخومة بأنفاس من خيوط الحكاية. رماح من ملح ورمل وزبد، ترتجّ بين خيوط الفجر ونزيف الشفق.

حياة وعبد الله يخطئان، وأخطاؤهما تلثم ضحكهما المرجوس.

حياة تلبس أحلامها على قفاها، مثل فساتينها، وعبد الله ينتعل عقله بالمقلوب، مثل حذائه. كما أنهما لا يميّزان بين نجوم الليل ونجوم

الظهـيرة. يفعـلان ذلـك دون قـصد أو سـوء نـيّة لأنهمـا مـسكونان بالركض إلى حتفهما.

عقب كل رضّة قلب، أو عضّة جوع، أو جرح كبرياء، ينكفئان على فشلهما، ويجهشان باللوم على بعضهما، وتنأى مسافات القُبل.

أحياناً، يتواريان عن جسديهما، وينفلتان من جحيم الرغبات إلى حلم يضجّ بكينونتهما الصاخبة.

ومن يخطئ دائماً، يلبس الإثم والعار. لا خلل أو عيب فيه سوى أنه يصدق..

قالت حياة: أنا جائعة.

وقبل أن يهم عبد الله بانتزاع قلبه ليقدمه لها. رسمتُ رغيفاً خرج لتوّه من التنور، تفوح منه رائحة القمح ولون الشمس. مدّ عبد الله يده لأخذ الرغيف، قال الخباز:

أعطني ثمنه..

(وأنا كنت قد نسيت أن أضع نقوداً في جيب عبد الله، لأن أول الشهر كان على الأبواب: وهو لم يقبض معاشه بعد).

دارت حياة قفاها لعبد الله، ونامت جائعة:

ذهب عبد الله في منامه إلى البحر، واصطاد سمكة، عانقته حياة وزرعته بالقبل، وقالت:

ـ الرجل الرجل يذهب إلى البحر ويأتي بسمكة. انتشى عبد الله وشعر بالفخر، وانتفخت أوداج روحه. شكر البحر الذي قدم له هذه الهدية التي لا تقدر بمال.

بينما كانت حياة تنظف السمكة وتنزع أحشاءها، قفز خاتم السلطان من بيت أصابعها، وكرج مع الماء. نطّ عبد الله إليه والتقطته من حلاوة الروح قبل أن يسقط في البئر. مسحه بذيل قميصه:

رقصا معاً على إيقاع حلم دنا قطافه..

ذهب عبد الله إلى السلطان، وكان لا يزال على هيئته الفوضوية. ملابس مبقّعة بالملح، وشعر مشطته أصابع الريح كما يحلو لها. ولأنه لا يحسن فن الديباجة والحديث، وهيئته لا تدل على أفعاله، طرده جند السلطان قبل أن يتفوه بكلمة، بركلة على قفاه، جعلته ينهض من نومه مذعوراً وهو يزرع قبضته في فمه، كي لا ينفلت صراخه ويرعب حياة.

بحث في جيوبه عن الخاتم، ولم يفطن أنه أسقطه تحت لسانه عندما زرع قبضة في فمه.

كان الرغيف لا يزال على مرمى يديه:

يده اليمنى مطوية على قفاه، واليسرى مفلوشة على فمه. حرامي اقتحم دفتري، كان عاري الوجه ولا يشبه زورو، يحمل مسدساً في كل يد، وخصره مدروز بالخرطوش. تسلل هذا الحرامي في اللحظة التي كنت أفكر فيها بالخاتم، وكيف استدرج عبد الله للنطق كي يكتشف مكانه.

سبقني الحرامي، وشهر مسدساته في وجهي، سرق لك الأرغفة، وصرخ عبد الله، طار الخاتم على حبال صوته، ووقع في خرج الحرامي.

قال عبد الله: أنا فاشل ومهزوم.

وقالت حياة: أنا مكسورة الخاطر.

في الليل، وبينما كنت ألعن الحرامي في سرّي، وألوم نفسي على الورطة الشنيعة التي أوقعت بها أبطالي، وأفكر بخلاص مشرف لهم. رسمت حياة هودجاً محفوفاً بالحرير والرقى والتعاويذ والزغاريد، وعبد الله رسم خيمة وقطيعاً من الحملان.

هربا من دفتري، شدا قامتيهما. فتحت حياة خزانتي، لبست ثوب عرسي وتزينت بأقراطي وعقودي وأساوري، كحلت عينيها، ورفعت شعرها بإكليلي، وعبد الله ارتدى طقم عرس زوجي المرحوم، وعقد ربطة عنقه. ولم ينس أن يضع منديلاً قرمزياً في جيب سترته الصغير.

صارت حياة تشبهني..

وعبد الله كأنه زوجي..

فتحا الباب، وانسلا كعاشقين.

سار الركب على حداء الريح والرمل وأجراس القطيع، والصحراء كانت تفرش أهدابها وتظلله من الحريق. في مضارب السراب الوامضة كبحيرات من الفضّة، ترجل الركب عن محمله.. وهدأت أجراس القطيع.

وفي خيمة بحجم الكون، وعلى جلود دافئة وبسط ملوّنة، هدر العشق بحاراً من الأشواق "في غمرة انعتاقه إلى الموت، نسي عبد الله أن يضع أرسنة لأعناق القطيع، كما أنه نسي أن يرسم لها اصطبلاً".

تاه القطيع، وتبعثر رنين أجراسه في فلاءات الرمل، أنجبت حياة صبياً بعد آلام مخاض عسيرة. حبل السّرة كان ملتصقاً برقبة الصبي، وملفوفاً حولها "كالشال"، طرفه المفتوح يتدلى كمزمار على صدره، ويعزف ألحاناً عذبة كلما اختبأت فيه الريح، وعندما كبر صار يتأرجح به على حلبات السيرك وفي الأعياد، ينادي على أمه.. كلما ضاق عليه الخناق.

نهضت في الصباح، أخرجت دفتري من تحت وسادتي، كانت تلوّن صفحاته بقعة دم متناثرة الشموس.

فارس

يطول التعب... ويقصر العمر...

وفارس تعوّد منذ نعومة أظفاره أن يفيق مع الشمس وينعس في غيابها.

وما بين الشروق والغروب ملحمة عشق لا تنتهي...

المسؤوليات تتثاقل جبالاً على المنكبين كلّما تقدّم به العمر.

النهايات ما هي إلا احتمالات قصوى لبدايات جديدة.

ورحيق فارس يتناقص بالتدريج من فيض التعرق واللهفات، وعضلاته الواهنة لا تكفّ أوتارها الموسقة على عزف ألحانها على لحم الوليمة. ألحان تبدأ بصخب الأبواق رنين الصنوج كالمارشات العسكرية... وتنتهي بنأمة قلب على وتر ربابه في صومعة الجسد المقرور... وجسد فارس "كونه الصغير" متناسخ من جبال وأشجار ومياه....

أبداً" مسكون بالهدير ولا يكفّ عن الدوران حول ينابيعه القصيّة ورغيفه الذي يشبه القمر في بعده وجماله وجلاله واكتماله...

بالتعب والضجر يدنو من أصله... ينزّ مواله الأخير على شرفة الانتظار، ولا يضجر فارس "أجير مقهى أبو شفيق" من عمره... الذي صبغ جلده بالوشوم الداكنة والندوب العميقة.

مع الشروق يركض فارس إلى اسمه بخطوات معربدة "حتى ولو كانت أقدار البشر من أمثاله مثل أقدار الشجر..

وكلاهما تحت رحمة الفأس والجشع.

ولا يجفّ فارس مع جفاف النهر وموت الشلال. النهر كان شريان الوادي يهدر عند أقدام الأشجار وتحت مقاصير المقهى بصخب البدايات... والشلال كان يهبط بزخمه الفارع من إحدى خواصر جبل قاسيون ويندّي الأشجار والطاولات والكراسي ورواد المقهى المحرورين.... يطول الانتظار ويقصر العمر...

في انتظاراته الشتائية الملهوفة، يطلّ فارس من إحدى شرفات المقهى المطلة على الوادي والتي تبدو من عمق الوادي كأنها مناطيد خضراء معلّقة بالهواء. يطير كنسر والرياح تختبئ في عبّه وأمامه، يصبح جوقة من الفرسان تخبّ مهورها في مروج القلب على صنوج الشعر، وكأيام زمان يصخب بهدير النهر ونزق الشلال الهادر.

"مقهى أبو شفيق" الذي عمل فيه فارس أجيراً لأكثر من نصف قرن مقترناً بذاكرة الربوة وعشاق الغوطة..

بعد مرور مئة سنة على ولادته بقي على حاله الذي كان عليه منذ ولادته. رياح العصر بصرعاتها وديكوراتها وبهرجتها وجنونها لم تمس شعرة من رأسه الوقور ولم تبدل أبداً من ملامحه الدمشقية

العريقة رغم أن عشرات المقاهي العصرية جاورته وحاصرته بقي "مقهى أبو شفيق" في وسطها كأنه الجد المهيب ينطق بتاريخ الأيام الغابرة...

... وسترة فارس أعرض من كتفيه بشبرين... وبنطاله أعرض من خصره بأربعة أصابع وحذاؤه أكبر من قدميه بثلاث نمر. كان فارس يشد بنطاله بمرسة إلى خصره ويطعج حذاؤه مثل الشحاطة. صاحب المقهى وأولاده من بعده ما طالبوه أن يبدّل حلّته ويرتدي بدلة عالموضة مثل نوادل المقاهي المجاورة، فهو والمقهى سيان بينهما علاقة عمر لا يفصل عراها حتى الموت تبقى في ذاكرة الوادي كأغنية... يرجع قاسيون صداها.

"شوشة" الأشجار تخضرّ في الربيع... و"شوشة" فارس حالكة في كل الفصول.. أبداً ما غزا البياض شعرة من رأسه!! ربما لأنه مفطور على طفولة مديدة تجهل كيف تغلّف أهوالها وتضخمها:

أصالة الرؤوس والشجر من أصالة المنبت.. وما تحريم المشروبات الروحية في المقهى إلا زيادة في الحصر على تقاليده "وحريم" روّاده، فالصرعات العصرية الوافدة تفدغ جبهته وتدميها بقسوتها، ولا بد من استيعاب أسبابها ومسبباتها وغاياتها حتى لا تضلّ الإيقاعات مسارها.... حاراتها وأفلاكها.

وفارس الذي لا يعرف "فك الحروف وتضليلاتها" سمّى نفسه بـ "زلمة الشاعر"، إذا كان بفطرته الطفلية النقية من شوائب عصره على علاقة وطيدة مع الله والطبيعة والشعر.

منذ الخمسينات توطدت علاقة فارس بالشعر، وهذا التاريخ مرادف لظهور الشاعر في حياته، فقد دأب الشاعر منذ ذلك الزمن

على المجيء إلى المقهى يومياً ولا يقطع مشاويره إليه حتى في عزّ البرد والزمهرير حيث يقفر المقهى من رواده، ويكون زبونه الوحيد... يأتيه راجلاً بشجن مقرور النجوم وأحلام طافحة بنسيج الغربة، وفارس ينتظره دائماً في مقصورة من تلك المقاصير الخضراء يمنّي نفسه بدفء التواصل وحرارة اللقاء.

النهر قصيدة والشلال قصيدة والمرأة الجميلة قصيدة.. كلّ ما حولنا قصائد رائعة كتبها الله بلغته التي نعجز عن محاكاتها وتقليدها. هذا ما قاله الشاعر عندما سأله فارس عن الشعر، ومن يومها لازمت فارس دهشة قصوى:

كيف يستطيع الشاعر أن يحمل كل هذا في دفتره الذي كان يتأبطه في مجيئه ورواحه؟

قال له: أنا زلمتك..

صار يتصوّر مع صديقه الشاعر كلّما جاءت الصحافة والتلفزيون لإجراء ريبورتاجات ومقابلات معه.

للكاميرا عين فضولية لا تخطئ تفاصيل من تسلط عليه أنظارها:

يشد فارس قامته وهو يحبس أنفاسه وينفخ أوداجه. ملابسه الجديدة كانت تخص صديقه الشاعر، كالعادة، بدت فضفاضة عليه بمقاس فارسين ولكنه لا يبالي فهو مثل الجنود ليس حرّاً في اختيار ملابسه.

يشرق فارس بفرح طفولي وهو يتفرج على حاله في الصورة. يتمعّن فيها وهو غير مصدّق، فهو منذ ليلة عرسه لم ينظر إلى نفسه في المرآة إلى درجة أنه نسي وجهه.

صاحب المقهى الذي كان يمت إلى فارس بقرابة بعيدة، قال له: "استرزقلك بقرشين"، وسمح له أن يفتح المقهى في فصل الشتاء من أجل صديقه الشاعر... وكان فارس ينتظره طوال فصل الشتاء يومياً على مقصورة خضراء حيث كان الشاعر يأتيه راجلاً يتأبط صحفه ودفاتره وأقلامه كأنّه منذور للشوق النازف من صخرة العشاق المجاورة للمقهى والمتكئة على قاسيون. كلمة "اذكريني" الذي كتبها عاشق يوماً محفورة على وجه الصخرة، تبدو كوشم نابض الحروف يطل على الوادي. "غورو" وعساكره كانوا قد مرّوا من تحتها... اقتحموا دمشق من بوابة العشق!! لم يلتفتوا إلى الصخرة ووشمها الشاهد على عمرها وصلابتها:

ودمشق حكر على عشاقها...

طاولات فارغة وكراسي مهجورة مغطاة بأوراق التين والدلب والدوالي الصفراء، والأغصان العارية من دثارها تنزّ ووحشة... فارس وصديقه الشاعر وسط هذا العراء مثل دون كيشوت وسانشو يحوّلان وحشة القفر إلى ملحمة طافحة بالأحلام.

... وفارس يحب فصل الشتاء أكثر!

في فصل الصيف، والوادي يشمخ بأشجار حوره وقاسيونه ينهض فارس مع جهجهة الضوء كأنّه على موعد مع عبلاه:

أباريق الشاي ودلال القهوة والنراجيل. هم ترسه ورمحه وأبجره في مقارعة الزمن. الشعر والنهر والشلال والأشجار أبجدية الدهشة المقيمة في الحنايا.. ولا يعرف فارس سر هذا الاصطخاب الذي يعتريه في محرابهم. صاحب المقهى كان قد أعطاه غرفة على يمين درج المقهى. تزوج فارس فيها وأنجب أولاده، كبر الأولاد وتزوّجوا، وبقي أجيراً نشيطاً يعيل أولاده المتزوجين في عسرهم، وملابسه تتفضفض باستمرار مع جلده....

ينمو التصحّر كأخطبوط يشفط الماء وبهجة الخضرة. يشحّ النهر ويموت وينقطع الشلال....

ويضيق الكون من حوله. صديقه الشاعر ومعجباته المليحات اللواتي كنّ يتقاطرن إليه من شاشات السينما والتلفزيون... يوسعن الكون إلى حدود الروح... ويتوازن فارس مع عالمه واسمه.. يضحك كأيام الشباب قبل أن تتعرّى لثته من بياضها كما تتعرى الصدفة من قوقعتها... ويتعملق بالشعر في فصول البرد. وحده يصبح المقهى يصول ويجول على هواه. لا صخب ولا جلبة وصوت مذياع وقرقرة نراجيل كما في فصل الصيف. فصل الصيف يحوّله إلى أجير مهمته مسح الطاولات وتلبية طلبات الزبائن. والقليل القليل منهم ربما يمنحه كلمة أو ابتسامة.

والبقشيش في اكتظاظ الحر والناس له زنينه وإغراءاته، ولكنه بلا تواصل أو مودة يكرّس عبوديته.... والذاكرة روزنامة الأيام الماضية... لا يذكر فارس تاريخ ميلاده، فهو مثل المدن يؤرخ عمره بالأحداث الكبرى. يقول لصديقه الشاعر أنّه عاصر العسكر

السنغالي ورشقه بالحجارة وشارك في إضراب الستين، ويصدق الشاعر عندما يقول له، إن عنترة أبو الفوارس هو أب لكل الرجال الشجعان ولا بد أن يمتّ إلى فارس بصلة قرابة... ويكبر فارس إلى اسمه ويتوارف في شتائه مع أشجار المقهى، يرتبط اسمه بالمقهى ويصبح مرادفاً له.

في لفح الشوق والسماء تشلح ثوبها الأبيض وتدّر على الوادي من مقصورته يطل فارس على الوادي يراقب مدخله الدمشقي.. بشغف العشاق ينتظر قدوم صديقه الشاعر. لقد أعدّ له الشاي الخمير وعندما يحضر سيدفئ له الكاسات بالماء الساخن حتى يرشف الشاي دافئاً.. يطول الانتظار ويقصر الدرب...

وفارس في مكانه على الشرفة لا يمل من الانتظار. يدثره الثلج ويبيض شعره مثل فرسان العصور الوسطى:

وكانت المرّة الأولى التي أخلف فيها الشاعر بوعده.

الفهرس

تقديم/ ماجدة حمود 5
الدجاجة 21
الدرب إلى المجرة 25
الجرد الحنون 35
وكان اسمي: الشاطر حسن 41
الصبية والأخطبوط 45
وحشة 49
امرأة ورجل 53
الجنين الذي ذبح أمه 57
حكاية ولد من جيل يأجوج ومأجوج 63
رقية 69
أبطال من ملح 81
فارس 87